حسن إمامي

إسلام مارسيل

رواية

(شراع الحياة، متاهات يأخذنا إليها مهب الريح.

ربما هو القدر. ربما هي الحياة)

سي علي

أشار علي إلى طاقم شاحنة النظافة بتحيته من داخل حديقته الصغيرة. رد عليه العمال كالمعتاد بابتسامة وتلويحة سريعة. جعل وعاء القمامة المفرغ داخل الحديقة، ثم عاد لينظف وعاء جاره مارسيل ورشه بالماء من صنوبر حديقته، مستعملا في ذلك مكنسة خاصة. ترك الوعاء مقلوبا فوق العشب ثم دخل إلى منزله قاصدا الحمام لتنظيف يديه بالصابون.

نادى على زوجته فاطمة لتعد كأس شاي. لقد تعوّد على شربه بعد فطوره الصباحي بنصف ساعة تقريبا. سيبدأ عمله اليومي بعد الزوال، ولا يزال عنده متسع من الوقت ليقرأ بعضا من آيات القرآن والذكر الحكيم. خلال ذلك، تكون زوجته فاطمة منشغلة داخل مطبخها وعالمها المنزلي الذي لا يعرف عنه تقريبا سوى رائحة الوجبات الشهية التي تقدمها له كل يوم، رغم أنه يساعدها في بعض أوراش المنزل خارج المطبخ، في مسح غبار الأثاث وزجاج النوافذ والدواليب.

يحب أن يرى كل شيء نظيفا ولامعا، مثل صورة منزله من الخارج، وكذلك صورة وعاء نفايات جاره. كذا حين ركوبه الحافلة أو المترو، فهو يود رؤية كل شئ نظيف أمامه. قد يأخذ منديله من جيبه ويمسح دوائر ومحيط الكرسي أو زجاج النافذة التي يجلس بجانبها. قد يلتفت شخص ما بسرعة لملاحظة سلوك علي، لكنْ، لا انعكاس ملمحي على محيى جلّهم. الكل متسمّر في كرسيه منعزل عن الآخر، ومنشغل بمجلته أو جريدته. بينما علي منبسط لتجلي عبارته المألوفة: النظافة من الإيمان.

رن الهاتف. مد يده بجانب الأريكة لأخذ السماعة. كان حدسه يعلم أن يوسف، ابنه الوحيد، سيكلمهما في هذه اللحظات من يوم الخميس. فقد تعود على تحية أبيه وأمه صباح يوم كل خميس:

ـ صباح الخير أبي العزيز.

ـ صباح الخير ابني. كيف حالك؟

ـ بخير، الحمد لله. وأمي كيف حالها؟

ـ الحمد لله.

ـ كيف بقيتْ مع أوجاع الأمعاء؟

ـ لقد وافقها الدواء الذي وصفه لها طبيب الأسرة. الحمد لله. إنها في أحسن حال، تنتظر حضورك لتعاود تناول الدهنيات العزيزة عليها، مستغلة الترحاب والاستضافة. حْشُومة ما تْزِيد ليدام في الطعام.

ابتسم يوسف لكلام أبيه الذي جعله منشرحا مطمئنا مشتاقا للمجيء من مدينته لوزان السويسرية، مكان اشتغاله ودراسته، إلى مدينة ليون مقام والديه. لكن الظروف لا تسمح بذلك في الوقت الحالي.

جاءت فاطمة ببراد الشاي مبتسمة ومسرعة في الجلوس أمام زوجها علي، مستعدة لمكالمة ابنها العزيز عليها. أرخت تلابيب قفطانها المزركش الذي خاطته في بلدها المغرب الصيف الماضي، وسرحت شعرها من فوق جبهتها مع مسح حاجبيها، كأنها مستعدة لالتقاط صورة تذكارية.

ـ ها هي أمك تريد مكالمتك، لقد وضعت عطرا جميلا قبل أخذ السماعة. هكذا يعلق علي في مرحٍ، مدخلا ابتسامة وراء ابتسامة في نفوس المحيطين به، مكثرا من الحمد لله في كل لحظة وحين، أكان فرحا أو حزنا، مرضا أو صحة، يسر حال أو عسره.

مسكت الأمُّ السماعةَ بفرحة ورغبة كبيرتين، مستعدة لتلبية وتغذية عاطفة أمومتها ومساءلة ابنها ومباغتته في كل مرة بسؤال:

ـ متى تجيء لنا بعروسة جميلة. تعرف، لقد حلمتها يوم أمس شقراء، بفستان وردي جميل، مبتسمة مقبِّلة جبهة أبيك. ياكْ ما دَرْتيها وتزوجت بلا خبرنا؟ لكن يا ابني، أتمنى لك سعدا وسعادة مع مغربية بنت بلادك، التي ستربي لك الأولاد وتحترم دينك وصلاتك. اسألْ أبَاك الذي خدم عازبا ببلاد الغربة لخمس سنوات وأتى إلى المغرب لكي يبحث عن الزوجة الصالحة.

وتستمر فاطمة في نسْج (إيديولوجية) أمومتها، حيث يشعر معها يوسف بنوع من الحرج لعدم قدرته على توفير جميع وكامل المواصفات للمرأة التي تريدها له أمه فاطمة كزوجة. لا زال يبحث عن توافق لذاته مع تجارب صداقاته في الدراسة والعمل والحياة داخل لوزان السويسرية.

ينتقل السؤال عن الصحة والطقس والأكل والاهتمام بالحال في كل الأحوال. ولا تريد نزع السماعة حتى يباغتها زوجها علي:

ـ هات السماعة واسكبي لنا كأس شاي قبل أن يبرد.

يرتاح يوسف نسبيا من شبكة الأسئلة الأمومية، وتختصر مسافة الكلام بين رجل ورجل:

ـ إلى اللقاء يا أبي، لا تنساني بالدعاء والرضا.

ـ وفقك الله للصلاح يا بني، ولا تنس أوقات الصلاة. إلى اللقاء.

مارسيل

يعود مارسيل في الساعة السابعة مساء. يجد دائما وعاء القمامة وراء السور القصير فوق عشب حديقته، نظيفا ومقلوبا. يُدخله إلى المطبخ، ويكلم نفسه دائما بصوت تسمعه جدران منزله:

ـ شكرا جاري العزيز علي.

بابتسامة تجعله منشرحا بعد يوم من العمل والضجيج في الشارع وفي الحانة التي يذهب إليها لتبادل الكلام وتناول قنينة من الجعة أو اثنتين يوميا، تدفئ شراييـنه وتفتح شهيته لوجبة العشاء التي يعدها بنفسه في مطبخه بعد أن غادرته زوجته لأكثر من سنة ونصف مفضلة العزلة في قريتها الصغيرة شمال غرب فرنسا على شاطئ البحر بعد صدمتها النفسية التي سبّبتْ لها أرقا حادا جعلها دائمة الصمت باردة المشاعر منعدمة الرغبة الجنسية. فضلت أن تريح نفسها وتريح زوجها من معاناتها ومشاكلها.

لازالت صورة هيلين وهي في ريعان شبابها وبابتسامتها وجسدها اللامعين بجانب المدفئة. في كل مرة يحيي مارسيل الصورة بكأس خمر يتقاطع معها نخب الشرب. لكن فراقها ووحدته أمران يحدثان حسرةً، يعض شفتيه بسببها كل مرة، جاهلا الحلول لهذا الوضع الذي أصبحا عليه هما معا: مارسيل وهيلين.

رغم وصول عقارب الساعة إلى الحادية عشرة ليلا، بقي مارسيل أمام التلفاز وأمام كأس نبيذه، متابعا شريطا سينمائيا. هذه المرة كان الشريط لمخرجه مصطفى العقاد، بعنوان الرسالة. فقد ساعدته الترجمة الفرنسية على متابعة الفيلم والتمتع بإخراجه الرائع. شدت

أنظاره المشاهد المتقنة والموسيقى المختارة. ومع متابعة الشريط كان كل مرة يرفع نخب جرعته المتجددة:

- لأجل جاري علي.

لأول مرة تتمثل صورة الجار علي في ذهن مارسيل ولا تفارقه. الشريط عن الإسلام والدعوة المحمدية:

- هذا دين جاري علي.

لم ينم مارسيل حتى الساعة الواحدة صباحا. فيوم غد هو رخصة من العمل، أخذها لتسوية أوراق إدارية خاصة به وبهيلين. لكنه للغد، لم يستيقظ في الصباح إلا بعد أن سمع أصوات حافلة النظافة وتحيات علي وصوت الوعاء الموضوع في حديقته. استفاق وفتح باب المنزل فوجد عليا لا يزال واقفا يتأمل السماء وطقسها في هذا اليوم الجديد رافعا سبابته مرددا كلاما بين شفتيه لا يفهمه مارسيل:

- صباح الخير موسيو علي.

- صباح الخير موسيو مارسيل.

- كيف حال العائلة؟

- بخير الحمد لله.

- من فضلك سي علي، أريد محادثتك.

- طيب لك ذلك، سأنتظرك حتى تلتحق بي.

مرت دقيقتان، ارتدى فيهما مارسيل لباسا دافئا، وكان بعدهما مبتسما ومحييا لجاره علي. تبادلا الكلام باللغة الفرنسية. علي، بجهده في الكلام واختيار الجمل المناسبة بلكنة المهاجر وبساطة العامل في التفكير والتعبير. ومارسيل، رغم شكله العادي والبسيط، يظهر مستعليا في حديثه بلغته الأم: اللغة الفرنسية، نظرا لسلاسة نطقه وسهولة تعبيره

بها. رغم ذلك فالفوارق تذوب ويحضر المشترك الإنساني اليومي بين الجارين، كما التقدير المتبادل بينهما.

ـ من فضلك موسيو علي، سؤال بسيط:

ـ تفضل مارسيل، أجابه علي بابتسامة متواضعة.

ـ أتساءل لماذا تقوم بتنظيف وعاء القمامة يوميا؟ الأمر يحرجني.

ـ جاري العزيز مارسيل، أنا أقوم بهذا العمل لأن ديني يحثني على ذلك. فقد أوصانا نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بالجار، وقد كاد أن يجعله وارثا. فخدمة الجار وحبُّه من سمات ديننا الإسلامي.

اندهش مارسيل لهذه القيم الحاضرة والمتباعدة مع مجتمعه الفرداني الأناني. حضرت في ذهنه كل سلبيات المدنية التي أصبح يعيشها الإنسان الأوربي داخل مجتمعه.

ـ على العموم أشكرك كثيرا على ذلك، وإن كنت لا أقوم بمثل عملك ولا أعلم كيف أرد لك الجميل يا جاري العزيز موسيو علي. لقد أحببت كثيرا اليوم الذي أهديتني فيه وجبة الكسكس. أدخلتم علَيّ فرحة كبيرة وأخرجتموني من قلق كبير. كرمكم جميل جدا. وكما تعلم، هيلين قد ذهبت ولم أعد كما كنت من قبل. كما أني لا أستطيع ولا أقدر على تحضير استضافة شخص ما، بالكاد أتدبر شؤون المنزل الداخلية. فشكرا جاري العزيز، دائما أقول هذه العبارة بمفردي داخل المنزل، وأقولها الآن: شكرا موسيو علي وشكرا لعائلته الكريمة.

يرد عليه علي:

ـ مارسيل ! ما أقوم به لوجه الله وفي سبيل الله، عسى أن يقبل الله عملي المتواضع هذا. ومتى احتجتني لشيء، أو لوجبة كسكس، أو إصلاح أنابيب المياه وما يرتبط بها لا تتوانى في المناداة علي. تعلم أن عملي هو صيانة مصلحة الماء في الفندق الذي أشتغل فيه.

ـ شكرا جزيلا مرة أخرى موسيو علي. أنا اليوم سأذهب إلى وسط المدينة: ساحة الطيرو، عندي أغراض إدارية بالقرب منها.

ـ إلى اللقاء موسيو مارسيل.

بقي مارسيل منشغلا في ذهنه مقارنة بين هذه المعاملة التي يكون أجرها في السماء، والمعاملات التي طغت على الناس في المجتمع، والتي أصبحت آلية ومرتبطة بالأخذ والعطاء المادي. ربما حتى لغة الكلام قد تغيب. المهم ذلك المقابل المادي الذي يستفاد من كل خدمة!

تغيرت نظرة مارسيل لمن حوله. سواء في المترو أو الحافلة. إمعان نظر لا يجد معه ابتسامة فطرية خالصة لمثل تلك عند موسيو علي، ولا لقيم التواضع ونكران الذات كما عند علي. بقدر ما يبدي انسجامه مع تفاعلات التواصل اليومي داخل مدينة ليون بقدر ما يستحضر صورة علي وشريط الرسالة الذي يتضمن اسما مماثلا: (علي) لكن لا يدري ما الرابط؟ مجرد تسمية ربما؟ فمارسيل اندهش في الرؤية الأولى للفيلم لشكل وتقنية إخراجه وحركته، لا لمضمون رسالة (الرسالة).

بعد انتهائه من أغراضه الإدارية اتجه إلى وسط المدينة وتناول في إحدى مقاهي ساحاتها وجبة الغداء بمطعم خاص بالبيتزا. أرفقه بقنينات جعة دانمركية. لَكَم حَنّ لهذا المطعم ولهذا المذاق وهذه النشوة. يذكره هذا الحنين بالسنوات الأولى للقائه بهيلين: فلسفتهما الهيبيية، رحلاتهما إلى إفريقيا وتركيا، عشقهما للنبيذ بكل أنواعه الممتعة ومخدر الحشيش المغربي، ثلاجتهما المليئة بكل أنواع الشراب إلا من أكل لذيذ. هكذا كانا يعلقان على عبثيتهما الحلوة والممتعة في العيش كفلسفة حياة. كيف انقشع الهيام وتبخرت الأحلام الفلسفية؟ وكيف كانت صدمة أحداث 1968 وفشل تجربة اليسار في لعبة الديمقراطية لتحقيق عالم الشيوعية الذي لأجله سلكا ثقافة الهيبيزم.

لاحظ وجود دكان خاص بالأقراص المدمجة، اتجه صوبه. لفت انتباهه جناح خاص بالأفلام الدينية التاريخية، شريط (الرسالة) في نسختين، واحدة بالعربية وأخرى بالفرنسية:

ـ لأجل جاري العزيز سأقتني هذا الشريط وأشاهد الفيلم من جديد.

في طريق العودة، اعترف مع نفسه بأن مشاهدته الأولى للفيلم لم تكن مركزة، خصوصا وأنه بث في قناة تلفزية تنفلت مع مشاهدتها تفاصيل كثيرة. لم ينتبه فيها لمضمون الرسالة ولم يتعرف فيها على حقيقة الإسلام الذي يجعل جاره عليا في هذا المستوى من

البساطة ورُقي في القيم. كيف يعقل أن تكون قيم مثل هذه عند عامل بسيط كعلي وزوجته فاطمة؟

عاود مارسيل جلسته ومشاهدة الشريط على الساعة الخامسة بعد الزوال. ركز ذهنه على الحوار والخطاب والمضمون. أخذ يفهم ويجمع ويربط الأحداث والشخصيات ومميزات الرسالة والرسول. فكر في أيام الهيبيزم وكيف انغمس في طقوس البوذية وترديد ألفاظ آسيوية غريبة عن مسامعه تتماشى مع نشوته بالماريجوانا والحشيش. لكنه ميز بين حالة الدوخة آنذاك وحالة الصحو الآن، وعلاقة الجوار والنظرة الواقعية التي أصبحت تميز ذهنه وفعله، بعد كل تجارب الحياة الماضية. اندهش أكثر للدور الذي أدّاه الممثل الأمريكي أنطوني كوين. سبق له أن شاهده في فيلم زوربا اليوناني. لا يدري أي فيلم سبق في الإخراج، فيلم الرسالة أم فيلم زوربا اليوناني، لكنه، أعجب أيما إعجاب بالشخصية والدور الذي أدّاه أنطوني كوين. شخّص شخصية عم رسول الإسلام حمزرة أحسن تشخيص. بلّغ الرسالة إلى المشاهد الغربي بشكل جميل وقوي ومؤثر. فكّر. ماذا لو انتقلت هوليوود لإنتاج أفلام عن العالم الإسلامي؟ وبهذا الشكل، وبسيناريو ومخرج ومنتج إسلامي؟ كان التأثير سيحدث انقلابا في نفوس المشاهدين والمتلقين. ربما شعر بوجدانه تحتله مثل هذه الانطباعات في التأثر الجمالي والقيمي الذي أبلغته مشاهد فيلم الرسالة.

للغد، لم يجرؤ مارسيل على طرق باب منزل علي. جعل الشريط الذي اشتراه وشاهده ليلة أمس داخل ظرف، وكتب عليه عبارته المفضلة في أنسه الانفرادي: إلى جاري العزيز علي، شكرا. جارك مارسيل.

شعور مفاجئ ملأ ذهنه وهمسه. تذكر طفولته بعينيه الزرقاوين وتسريحة شعره أمام المرآة، وأمه التي توضب لباسه قبل الخروج معها إلى الكنيسة يوم الأحد. ذلك التعلق بعالم الكبار وعالم السماء. حضور أقرانه من قريته المنبسطة على سفوح جبال الألب. تشديد الانضباط وعدم ترك انفلات للحركات الطفولية. فلا أبوه ولا كل الكبار بمن فيهم صاحب القداس يقبل حركات طفولية.

ـ لقد أصبحت رجلا عاقلا يا مارسيل. ها أنت تحضر شعائر يوم الأحد مع الكبار. لهذا لا يجب أن تقوم بحماقات الأطفال الصغار.

يظل ماسكا بيد أمه وهو يسمع لتوجيهاتها الممزوجة بالحنان والتنويه والأمر. يزيد انضباطا وهو ينظر إلى ميشيل صديقه في القسم وكاتم أسرار مغامراتهما بالغابة المجاورة في الجبل. تركيز عينيه الجاحظتين كان على حمامة في أعلى سقف الكنيسة قرب الناقوس الضخم المنفلت من داخل القبة. أشار بلمحة بصر لميشيل. تبادلا ابتسامات لا يدركها إلا الاثنين. كم جنيا على حمام الجوار وأسقطاه بحجر أو بمقلاع متاح. بين الشعور بالجرم وهذه اللحظة الطاهرة التي بدت مع لباسهما النظيف جدا، شعرا بالمفارقات التي بدأت الحياة تشقها في ذهنهما ووعيهما.

دفعه هذا الشعور وهذا التذكر للذهاب إلى أقرب كنيسة رغم أنه ليس يوم أحد. هكذا قرر دخول الفضاء المهيب. لكنه وهو يتأمل محيط الكنيسة الداخلي لم يجد تلك الشحنة النفسية التي ملأته في طفولته. فبينه وبين هذا المكان تجارب وسنون خرج فيها لفلسفة حياة مادية، أبعدت كل ما هو غيبي عن التأثير في حياته الخارجية وفي وجدانه. حتى كلمة الإله التي يرددها في كل مرة، وفي كل ردة فعل انعكاسي يقول فيها: يا إلهي õ mon Dieu، يعلق عليها في كل مرة:

ـ ما دخله هنا؟ أنا مارسيل في ورطة هذا الزمان.

هكذا يجادل نفسه أو جماعة مقربيه، فينقلب التعليق ابتسامة أو ضحكة أو تعجبا أو تأثرا بهذه الشخصية القادرة على التحكم حتى في مشاعر القدر.

خلال وقوفه بين صفوف الكراسي، ازداد مارسيل شعورا باغتراب داخلي جديد. بدت الكراسي المصفوفة أمامه جامدة وغائبة عن الكلام أو الحوار، مجرد أطلال لا علاقة له بها. لا يوجد إله بداخلها. هكذا ترك ذهنه يعلق وينسحب به متخذا الباب الصغير للخروج، كالمعتذر من الدخول. إنما تلك الخمر المعتقة والمقدمة في أقداح عبقة برائحتها، أغرته بجرعة منها. حبذا لو كان هناك حضور لرجل كنيسة في هذه اللحظة، يمده بها ويطفئ عطشه وظمأه الذي استفاق واشتد في إلحاح. أما طفولته التي أحيتها هذه الذكريات فلن تعود بمسحة ولا بتعميد.

ربما أقرب حانة سيجدها في طريقه ستملأ فراغه بكؤوس نبيذ تنسيه هذا الاغتراب الذي يعيشه من جديد. فقد احتاج إلى ثمالة جديدة يصرخ فيها بكل مكبوتاته المتراكمة. في كل

نخب يغبط جاره عليا في هدوئه وعدم انفعاله وسكونية حياته. قصد حانته التي ألفها، وقد أخذت نشوة الأقداح من لبه واحمرار خديه وبريق عينيه. خاطب جاره عليا، رغم أن عليا لم يكن حاضرا في جلسته. استغرب الحضور لنخبه وكلامه:

ـ نخبك علي. سأزور بلادك يا علي، وآكل الكسكس هناك، لن أتناوله من عند فاطمة.

الحانة كلها تتأمل هذا الصارخ الثمل وتنبسط لفلتاته المثيرة للضحك والشفقة.

ـ يجب أن نبيع تلك الكنائس كلها، لم تعد صالحة لشيء: أطلال وآثار.

بصوت متوسل تناشده النادلة:

ـ مارسيل أرجوك تمتّع بكأسك ودع عنك كنيسة الرب.

تُقبِّل رأسه، فيطلب منها تقبيله فوق خده كي يلبي طلبها. ينال مراده فيصفق الجمع لنيله لمطلبه، وينغمس الجميع من جديد مع لحن وصوت إيديت بياف:

Non rien de rien لا. لا شيء على الإطلاق

Non je ne regrette rien لا. لا أندم على شيء إطلاقا

ومع جرعات الكأس يناشد يإلحاح ثمل:

ـ أحب سماع:

La vie en rose. الحياة باللون الوردي

Des yeux qui font baiser les miens عينان تجعلان عيناي منخفضتين

Un rire qui se perd sur sa bouche ابتسامة تتيه في فمه

De l'homme auquel j appartiens الرجل الذي أنتمي إليه

Quand il me prend dans ses bras عندما يأخذني بين ذراعيه

Il me parle tout bas ويحدثني بنعومة

Je vois la vie en rose. أرى الحياة بلون وردي

Il me dit des mots d'amour يقول لي كلمات حبّ

Des mots de tous les jours كلمات لكل الأيام

Et ça me fait quelque chose ما يجعلني بقيمة ما

Il est entre dans mon cœur قد دخل قلبي

ـ نعم، اختيار جميل، أسمعونا هذه الأغنية بعد هذه.

في اليوم الموالي، وبعد أخذه لحمام دافئ، شعر مارسيل بارتياح نفسي وراحة كبيرة، لكن فكرة السفر طرحت نفسها بحدة. مضت مدة طويلة لم يسافر خلالها خارج فرنسا. يعلم دور السفر في تجديد الرغبة في كل شيء وحتى في الحياة. فلسفته القديمة التي تشبع بها وعاشها ومارسها، جعلت السفر انفتاحا للذات على الجديد دائما. في كل عودة من رحلة كانت أفكاره وكذا أفكار هيلين، تعرف تحولا نوعيا وتجاوزا لمجموعة من التصورات أو المواقف المحيرة والغامضة.

يعلم أن الذات تنتمي إلى هذا الكون الفسيح، وكلما تفاعلت بحواسها وذهنها وإدراكها مع جمال هذا العالم كلما اتسعت فضاءات تنفيها وعيشها وراحتها. حتى ذكريات السفر، كانت هيلين تجعل منها دروسا لما يلي من أيامهما وحواراتهما. وكأنها وصفات وجرعات توزع كل حين وكلما احتاج لها الطرفان. زاد متجدد ودواء منعش ومعالج.

ها هو يطبق فلسفتهما في حياته الفردية الحالية. لو أن هيلين كانت حاضرة. لكن كم من وجدان وروح تحضران مع ذات الواحد منا وتشاركانه محطات تفكيره واختياره وعيشه دون أن يكون صاحبهما ماثلا ماديا في اللحظة والحين.

ـ لمَ لا؟ زيارة المغرب من جديد.

وسط أيام الأسبوع وبمجرد دخوله من العمل، سمع طرقاعلى الباب، بعد مرور حوالي ربع ساعة:

ـ أهلا علي، جاري العزيز.

ماسكا طبقا ومادًّا له بيده اليسرى، سلّم علي بيده اليمنى بتواضع وابتسامة على مارسيل:

ـ أرجو ألا تكون قد خلدت إلى النوم، فقد أصرّت زوجتي فاطمة على تذوقك لوجبة كسكس، وشكرا على شريط الرسالة.

ـ شكرا علي، تفضّل، هذه فرصة لكي نتناول فنجان قهوة.

لأول مرة يجلس الجاران معا. فكر مارسيل وهو في المطبخ في نوع المواضيع التي يمكنه أن يناقشها مع جاره علي: لا أعلم إن كان يحب تناول كأس خمر أم لا؟ كم من المغاربيين يتناولونها في الحانة. أما علي فلا زالت علامة استفهام تجاهه؟

جلس علي فوق أريكة مسترخيا بهدوء ماسكا يديه ومشبكا لأصابعه.

ـ كيف حالك يا علي؟ بخير؟

ـ الحمد لله، وأنت كيف تدبر حياتك وحدك هنا؟

ـ أحاول ما أمكن، لكن تعلم أني لا أدخل إلا ليلا غالبا، لذا لا أستطيع تهييئ أي شيء بشكل جيد.

ـ أليست هناك عودة قريبة لهيلين؟

ـ لا، انتهى كل شيء. أتعلم: تقتلنا هذه الخيارات الفردية والانفرادية. لا نفكر في الآخر. ولكن ما العمل؟ فهي معذورة من ناحية، لم تعد تطيق التواجد هنا. حالتها النفسية صعبة جدا. رغم أنني حاولت مساعدتها وتوسلت منها أن تبقى وسيذهب كل ذلك الأرق والملل، ولكن لا فائدة.

ـ على العموم فهي الآن تجدد نفسها وتسترجع عافيتها في قرية عائلتها ومولدها. الطبيب قال إنها محتاجة لعالم طفولتها الأول. ويبدو أن هذا أخذ يساعدها في تصفية دواخلها من كل الأعراض التي انتابتها. لقد اختارت حلّ الطلاق لكي تستريح من كل قيود تربطها بالماضي.

ـ آسف مارسيل على كل ما حدث. أتمنى لك حياة طيبة. ألا تفكر في الزواج؟

ـ في الحقيقة لا. رجل في الخمسين يصعب عليه تجديد هذه الفكرة.

ـ لو كنت مكانك لفكرت جديا في الزواج.

ـ وكيف أستطيع ذلك؟

ـ كم من الأصدقاء توفيت زوجاتهم أو وقّعوا طلاقا، فعاودوا الزواج.

ـ هنا في فرنسا؟

ـ هم يعملون هنا في بعض المدن الفرنسية، ولكن في كل عطلة صيف أجد بعضهم قد عاود الزواج. أتعلم، عندي صديق لي اسمه إبراهيم، ذهب إلى قريته في جبال الريف

بالمغرب قرب الناظور، وتزوج بفتاة في سن الخمس والعشرين وهو عنده خمس وخمسون سنة. والآن هي حامل، سيسوي لها الأوراق للإقامة حتى تلتحق به هنا في فرنسا.

ـ هنيئا له. لكنها أصغر منه كثيرا.

ـ المسألة عندنا عادية في ثقافتنا وعاداتنا يا مارسيل.

ـ أريد أن أسالك يا علي: هل شاهدت فيلم الرسالة؟

ـ نعم شاهدته، أتعلم، هذه المرة الخامسة التي أرى فيها هذا الشريط، رغم طوله.

ـ تقريبا ثلاث ساعات ونصف. أظن.

ـ فعلا، ولا أخفي عليك أمرا أنني كل مرة أرغب في معاودة مشاهدته. فهذا الفيلم يشرف ديني الإسلامي.

ـ لكن لماذا لا يظهر النبي محمد في الشريط؟ فموسى وعيسى وإبراهيم، مثّل أدوارهم نجوم كبار في السينما ظهروا على الشاشة؟

ـ أعلم ذلك. وقد سبق لي أن سألت إمام المسجد هنا بليون، وكذلك بالمغرب، وكلهم قالوا إن شخص النبي مقدس لا يمكن لأحد تمثيل دوره. تصور لو أن هذا الممثل ظهر في شريط آخر بدور سيئ، فصورة محمد(صلى الله عليه وسلم) هي التي ستتضرر، أو إن هذا الممثل ارتكب معصية أو ظلما، ستذهب صورة الرسول المقدسة معه.

لم يعلق مارسيل على كلام علي. بدا له الكلام منطقيا. ويبدو أن الأمر يتجاوزه، فقدسية النبي الذي يؤمن به علي لا يمكنه مجادلتها. وهو يعلم تعلق المسلمين بنبيهم، وما وقع من مشاكل بسبب الصور الكاريكاتورية عبر العالم، وقصة سلمان رشدي... لا تعليق إذا:

ـ يوم أمس فكرت في زيارة المغرب خلال عطلتي المقبلة، وقررت أكل الكسكس هناك. لكن يبدو أن زوجتك فاطمة لم تدع لي خيارا في تذوق كسكسها من جديد. وهذا يحفزني أكثر على أن أزور المغرب: فاس ومراكش...

ـ اذا كنت ستأتي خلال عطلة الصيف القريبة، فمرحبا بك عندنا. عندي منزل بمدينة المحمدية، قريب من الدار البيضاء والرباط في وسط المغرب. ولا أزور هذه المدينة إلا

قليلا رغم ذهابي إلى المغرب. فالوقت الذي أحتاجه مع العائلة في القرية يأخذ مني جل أيام العطلة.

ـ شكرا علي، كرمك كبير جدا. لكن تعلم أن الرحلات المنظمة تحتجز لنا الفنادق وتقيدنا ببرنامج الرحلة مثل شباب المخيمات.

ـ أعلم. لكن بإمكانك أن تقوم برحلة بمفردك ليتسنى لك العيش داخل جو المغرب الحقيقي.

ـ صحيح، فتواصلنا مع الناس في الرحلات المنظمة محدود جدا، لا يخرجنا من ثوبنا ولا من جونا الفرنسي.

ـ فكر في الأمر وحينما تقرر، فالمفاتيح رهن إشارتك، تسلَّمها هنا بليون، واذهب كأي مغربي وتمتع بشمس شاطئ المحمدية.

ـ بالنسبة لفيلم الرسالة، من هو علي بالضبط؟ له نفس اسمك.

ـ علي بن ابي طالب، هو ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأصغر واحد دخل في الإسلام في بدايته. تزوج بابنة الرسول وكان شجاعا وعالما.

ـ لقد أعجبتني شخصيات كثيرة في هذا الشريط. عمر مثلا كيف كان مخيفا وقويا قبل إسلامه، وكيف بقي قويا ومخيفا بعد إسلامه. شيء رائع، فأخلاق هؤلاء الرجال متميزة.

ـ فعلا مارسيل، تاريخ الإسلام مليء بالرجال الكبار في العلم والجهاد. أوتعلم؟ تعجبني شخصية عمر كثيرا. هنا حديث للرسول صلى الله عليه وسلم، يتكلم عن خوف الشيطان منه. إذا رآه سالكا دربا ضيقا، فرّ من ذلك المسلك.

يبتسم علي لحكيه وهو يتأمل ردة فعل مارسيل. لا يدري إن كان سيقبل فحوى هذا الحديث. يعلم بأن المسيحيين يؤمنون بوجود الشيطان، ساطان، satan. لكنه لا يدري إن كان مارسيل متشبتا بمسيحيته أم أنه ممن تخلّصوا من الانتماء لها ولكنيستها. كم من معارفه ورفاق عمله عبّروا أمامه بمثل هذه المواقف.

تتحوّل ابتسامة مارسيل إلى ضحكة متعجبة ومندهشة في آن. لأول مرة يسمع مثل هذا التقابل بين الإنسان والشيطان. تحتاج لأكثر من وقفة تأمل ونظر. حكاية دسمة، أكيد أنها ستشغل ذهنه وتؤنسه خلال المقبل من الأيام والأوقات. لكنه احتاج لفهم أكثر لها. خصوصا وأن علي قد يقربه لفهم أولي منها.

ـ جميل هذه المقاربة والمفارقة. كيف للشيطان أن يخاف من الإنسان؟ قدراته أكبر من الإنسان. ألا تتفق معي؟

ـ أتفق معك. لكن الدرس الذي يعطيه لنا الحديث كبير جدا. كيف يستطيع الإنسان أن يتغلب على الإغراءات والمثيرات. ألا يسقط في مواطن ضعفه الداخلي فينجر إلى ما هو منهيٌّ عنه في دينه. إنها مسألة قوة الشخصية وشجاعتها في تحدي محطات الحياة الحرجة وامتحاناتها الصعبة.

ساد صمت استغرق تقريبا دقيقة في جلستهما هذه. رشف علي من فنجانه خلاله وتأمّل بعض أثاث حوله. فيما كان مارسيل منتبها لأفكاره ولما سمعه أكثر من انتباهه لما حوله. بدت له أفكار علي منظمة وواضحة. ليست عادية في الحقيقة. مثل هذا التحليل يُكتسب بمعرفة وتعلّم. هي تربية دينية إذا. هكذا استنتج ذهنيا.

ـ جميل ما سمعت موسيو علي. أفهم الآن أن الإنسان هو المتحكم في اختياره ومصيره. لا تستطيع قوى أخرى نزع حرية اختياره منه إلا إذا استسلم أو ضعُف.

وتابع مارسيل تساؤله وتحليله في حواره الذي أصبح شيقا وغنيا مع جاره علي:

ـ هناك موضوع يطغى على وسائل الإعلام، ويجعلنا في اهتمام به وفي اتخاذ لمواقف ضده. حتى من الأحداث تجعله مثيرا ومخيفا. هو موضوع الجهاد. يبدو صعبا علي فهمه الآن. فوسائل الإعلام تتكلم عنه بشكل آخر ومخيف جدا.

ـ أكيد هناك فرق بين ما يقولون وحقيقة الجهاد. أنا كذلك حينما سمعت ما يقولون سألت الإمام، ورغم أنني لم أفهم جوابه، فما هو مؤكد هو أن الجهاد ليس هو الإرهاب كما يقولون.

ـ نعم. هكذا التقط مارسيل جواب جاره علي. هناك مصطلح الجهاد ومصطلح الإرهاب. لابد من فهمهما. الإعلام يجعلهما مترادفان. سأحاول البحث عن دراسة في الموضوع وأناقشها معك.

ـ اتفقنا، أسعدت مساء مارسيل، الساعة العاشرة والنصف ليلا ولم تتناول كسكس فاطمة بعد.

ـ صحيح، لم ننتبه للوقت، لقد مر بسرعة. في الحقيقة، الجلسة معك يا علي مريحة. أتمنى أن نلتقي ونجلس معا للمناقشة والمحادثة.

ـ إلى اللقاء مارسيل.

ـ طاب مساؤك علي.

كانت فاطمة منتظرة دخول علي، فربع ساعة أو أقل أو أكثر أصبحت ساعة ونصف. كم من موضوع تخيّلته في جلسة زوجها مع جارهما مارسيل. حين أراد الخلود إلى النوم، كان حديث السرير مستمرا حول ما جرى من حوار بين الرجلين:

ـ تعلم يا علي إذا أراد الزواج من المغرب، عليه أن يصبح مسلما.

ـ أعلم ذلك، لكن في الحقيقة لم يخطر ببالي مفاتحته في الزواج بمغربية. ربما في فرصة أخرى مقبلة أفاتحه في الموضوع، من يدري، ربما يود أن يصبح مسلما؟

بقيت فاطمة صامتة ومفكرة في الموضوع، كأنه يهمها وكأنه تخصصها. حل مشاكل الزواج وزواج جارهما.

ـ طيب، يحن الله، لنخلد إلى النوم، اطفئي الأنوار.

...

جاكلين

جاكلين نادلة الحانة، وصديقة مارسيل في وحدته. تقوم بزيارته كل مساء جمعة. تجد المفتاح تحت الأصيص الصغير بجانب الباب الثانية. أما الباب الأولى، فلمسة يد على قفلها من خلف شباكها القصير تساعد على فتحها. ترتب فضاء مارسيل المنزلي، وتدخل عليه لمساتها، ورائحة عطرها القوي، كما تُحضر عشاء وجلسة عشق وخمر أسبوعي. تكون عطلتها الأسبوعية بعد زوال كل جمعة حتى تعود يوم السبت إلى الحانة، حيث عدد الزبائن كثر ويحتاج لحضور جميع العاملين بها. هكذا يأخذ العمل في الحانة منها كل وقتها. ما تستغله من راحة وخلود للنوم لا يكفيها. لكن ما العمل؟ لا بد من التوفيق بين كسب الرزق والعشق وطلب الحياة والبحث عن رفقة وأنس.

في لحظات، يكستب اللقاء بينهما طابع حوار شيق وجميل. يكشتفان خلاله مجموعة من الأفكار والمفارقات. تسأل مارسيل:

ـ تعلم يا مارسيل، أشعر بحاجة إلى مثل هذا الاهتمام بمنزلك وترتيبه والعناية به. لكن كل هذا للَحظات فقط. ربما لكوننا نلتقي مرة كا أسبوع، ما يجعلني أقبل مثل هذا الاستثناء. وكأنني في حنين إلى أمومة غائبة أو حياة زوجية مستبعدة الآن.

ـ كلامك يحتاج إلى توضيح أكثر. ما أعلمه الآن هو أنني محظوظ بهذا الاهتمام. من سيسعفنا في تفكيك شيفرات هذه الاستثناءات؟ تكونين تعبة ومتعبة من العمل، وحين تلجين قصر مارسيل العجيب، تصبحين نشطة وحيوية من جديد. هل نستحضر سيغموند فرويد فقط؟

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ فرويد والتحليل النفسي. يجعل الأمر ففي هذه الوضعية تهييئا لرغبة جنسية تبرر كل هذه الحيوية.

ـ قد يكون على صواب. لكن المسألة عندي أكثر من ذلك. ما أشعر به داخليا هو أنني أحتاج إلى أن أكون إنسانة أكثر. ليست كل الأوصاف المرتبطة بالزوجة أو الأم معيبة. هناك ما جميل فيتاريخ الإنسان، وفي هذه الوظائف. ربما أصبح بعضه مجرد مثاليات داخل مجتمعنا. ربما فقدنا بوصلة تحقيق السعادة واسترجاع بساطة العيش الهنيئة، رغم هذا التقدم الذي نفتخر به داخل مجتمعاتنا الغربية.

ـ كلامك صحيح جاكلين. ها أنت أكثر حكمة، بل أنت حيكمتي التي تنيرني في حياتي. عانقي هذا لغريب عن ذاته أرجوك.

في لحظة تلبية للرغبة واسترخاء جسدي ممتد على السرير، أشعل مارسيل سيجارة وناولها عشيقته جاكلين. فكر مليا في مؤنِسته وحوارهما الأخير هذا. بدت أفكارها جميلة، لكنها معبّرة أكثر عن الفُقْد والحرمان والضياع، وانفلات عالم مثالي كما عبّرت هي عن ذلك. رغم كل هذا، لم يجد في رفقتها ما أخذته معها هيلين من حوارات فكرية ممتعة وجديدة. تلك التي كانت الكتب زادها اليومي. كان يعلق عليها كل حين:

ـ يوما ما سأجدها قد ابتلعتك، ولابد لي أن أبحث عنك داخل أسطرها. فمن الآن دُلّيني على أفضل الصفحات التي سأجدك فيها وداخلها.

ـ ستجدني في أول صفحة من كل كتاب. هُنَّ كثيرات بين الأسطر، والأخطر قد تكون عاريات؟

ـ من هنّ عزيزتي؟ تخترق أنامله همس السؤال ودفء مخابئ حبيبته.

ـ هنّ أو أي واحدة منهن. لكن، لا تخف سأبخرهن سحبا متناثرة في السماء. عيناي دلالات كونك وفضائك وخيالك. أتعلم أيها اللعين! كل مرة أمنعك من إغماض عينيك. وذلك

حتى لا تسافر بعيدا بخيالاتك. من يدري؟ ابتسامة ملتقطة في قطار الأنفاق قد تتسرب صاحبتها لدواخلك وأنت مسافر معي.

يضحك مارسيل لمثل هذا التعليق، ويبتسم الآن وهو مستحضر له كذكى حوارات جميلة مع من أحبّها وسكنت قلبه.

ـ لن أجعل السماء سوى بحروفك معشوقتي.

هكذا كان يداعب حبيبته هيلين وهو مخترق ما انسدل من شعرها البني من خلف عنقها ليخرجها من رغبة قراءة إلى رغبة جسد وآهاته تضاريسه.

لم يستطع مارسيل أن يفتح قلبه لجاكلين لكي يفكر في الأزمة الروحية والفكرية التي يشعر بها ويعيشها. أصبح يحس بفراغ كبير، بعد أن كانت هيلين هي المغذية والمالئة لروحه بكل الجديد المقروء عندها، بأسلوبها الأنثوي وخطابها الذي تعوّده مثل قداس الكنيسة المهجورة.

يشعر مارسيل الآن بأنه هو الذي هجرته كنيسته أو هو هذه الكنيسة المهجورة. فرغم زيارته للكنيسة لم يشعر بارتباط وجداني بها، وهو الذي يريد أن يبقى صريحا مع دواخله ومشاعره. دواخله فارغة من أي شعور بوجودٍ إلهي أو غيبي. يراكم ثقافة جيل حمل لواء العقل والواقعية. عاش حركة اليسار وتبنى فلسفتها. انخرط في العمل السياسي والنقابي منذ مرحلة شبابه. تعددت الانكسارات التي هدمت أبراج الإيديولوجيات التي آمن بها وصدق مشروعها. لا هو باليساري كما كان عليه فيما مضى. ولا هو بالمنتمي لديانة تجعله محلقا في سماوات الغيب والآخرة كل حين. لا سماء، ولا أرض يرسو خالدا فيها ذهنه.

في علاقته برفيقته الحالية، استسلم مارسيل لوضع ما هما عليه الآن، وما يجري بينه وبين جاكلين فيه. فالخمر تزيده من تقبل الأمر الواقع والاستمرار فيه. وحين الصحو منها، يكون كم من قرار فكر فيه، مع كؤوس النبيذ ونغمات الحانة الممتعة للسمع، تنحل الذات منه كقرار أو موقف. رغم كونه يتميز بالصراحة في مواقفه وجرأة الانتقاد للآخر

ولذاته، يبقى وضع هذه العلاقة موقوف التنفيذ في الحكم على مصيرها في قرارة نفسه. ما العمل؟ ربما شعوره بالفراغ وعيشه فيه شكّل محنة داخلية مريرة. أن تهجر هيلين الحياة الزوجية، فهذا أمر يشعره بانسلاخ لا يرغب فيه. ولكنه على علم بحقها في اتخاذ قرارها. فثمن الحرية هو هذه الصدمة أو ما يساويها ويماثلها.

لم يستطع مارسيل أن يفتح قلبه لجاكلين. جاكلين مهووسة بمتعة الحياة ونسيان تعب العمل والتسوق بأكبر قدر ممكن، لاتستطيع التدبير للغد والتحكم فيه، خوف من شيء لا تمتلك الذات أدوات التحكم فيه. قلة المال المتوفر وانعدام الروابط الأسرية والاجتماعية الحميمية، حيث أفراد الأسرة كل واحد منهم في منطقة منسية في فرنسا. ورغم كون إحدى هذه المناطق هي باريس، فالغربة واحدة والعزلة واحدة داخل عالم الوحدانية، ولو كانت في أجمل مدن العالم. يفكر في كل هذا وقد يستنتج دون أن يشعر أن الإنسان الغربي يسارع إلى توهم السعادة بالمتعة العابرة والتملك الاستهلاكي وغيره. محنة هي الحياة. هكذا قد تحضر مجموعة أفكار مستجمعة من المقروء أو المسموع بين مجلات أو جرائد أو قنوات سمعية بصرية.

شعور لا واعٍ يحضر فلتاتِ لسان جاكلين. يتفهمه مارسيل بطريقته الخاصة. وفاقد الشيء لا يعطيه. هو كذلك حائر في أمره. ما العمل؟

الكل يستسلم لوضع العلاقة إذا، ولحدود تلاقيها. لكنه بدأ يشعر بحاجته لشيء ما غير هذا الجسد الممتد، غير هذه الرغبة الملباة. ما هو هذا الشيء؟ لا يعلمه. شيء روحي غيبي غامض ربما؟

لماذا صورة علي جاره وطيبوبته ونكران ذاته واستقراره الاجتماعي؟ لماذا يكون كل هذا حاضرا في ذهن مارسيل، وبشكل متزايد؟ أ لِحاجته لبعضٍ من هذا الوصف وهذا الاستقرار؟ ربما. أهي غيرة من هذا المهاجر في دياره؟ لا. فمارسيل لا يؤمن بفارق بين المهاجر والعامل الفرنسي، كلاهما في وضعية كدح واستغلال. هكذا علّمته ثقافته الاشتراكية وعنفوان أفكاره الثورية والوجودية التي شبّ عليها مع أحداث 1968. بقيت

آثار هذه الثقافة حاضرة في وعي وخطاب مارسيل، رغم التحولات التي شهدتها أوروبا والعالم.

ـ مارسيل، لقد أخذت بعض النقود من فوق المنضدة. أحتاجها لأجل التنقل إلى العمل. إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء جاكلين.

مع سماع الباب المنغلق وخروج جاكلين في الصباح، تزداد رغبة مارسيل في جديدٍ حياتيٍّ آخر لا يعلمه ما هو. ربما يرمز هذا الانسداد إلى أن بديلا آخر أفضل.

سفر جديد؟ ربما. هذا هو المتنفس. تضيق النفس من الفراغ الداخلي. ذهب الشعور بالحب مع هيلين التي أخذت عالم المشاعر وجنّته معها. أ تكون الجنة هي المرأة حين فقدانها؟ ذهب الأنس الدافئ في حضنها. ذهبت مبادئ سيمون دو بفوار وسارتر وماركس. لم يتبق سوى تحليل فرويد لعُقَد الغربي النفسية. حتى تلك الروايات التي رسمت خياله انبنت معها مبادئه أصبحت بعيدة عن هذا العصر الحاضر والحالي الذي يعيشه: "لو كنتُ في هدوء جاري علي واستكانتِه؟"

لماذا هذا التعويض بالخمر والعربدة والعبث في كل شيء؟ كم كأس كانت باردة وحلوة تحولت إلى مرارة في الحلق في الصباح أو مع ذهاب نشوتها. كل هذا الوعي المُستنتج لم يساعد فكر مارسيل على الراحة. ما العمل؟

ـ سألجأ للسفر، لعل آلهة الأساطير الكونية تسقيني بروح جديدة؟ هكذا استلهم شارات وكالات الأسفار التي تعودّ على التعامل معها، أبواب الشرق وإفريقيا.

* * *

ـ صباح الخير موسيو مارسيل، كيف حالك؟

ـ صباح الخير موسيو علي. لا بأس، وأنت؟

ـ الحمد لله، سنسافر إلى المغرب بعد خمسة عشر يوما. عندنا حفل زواج عائلي هناك.

في ثوان قليلة كان استغراب مارسيل من جاره الذي يبادر إلى الحديث عن خصوصياته وتفاصيلها مشركا الآخرين فيها. ما السر في هذه الثقافة والانفتاح على الآخرين بالخصوصيات. ربما يجد راحته في التعبير بصوت عال عن كل أفكاره وبرامجه هو الآخر.

ـ مبروك، لقد نادى المغرب إذن؟

ـ نعم، مرحبا بك مارسيل لتزورنا في المغرب. الدعوة جادة.

ـ في الحقيقة، كنت أنا كذلك أفكر في السفر هذه الأيام مع اقتراب فصل الصيف. وأفكر في زيارة المغرب، لكن لا أعلم متى؟

ـ عندك أسبوعان للتفكير والاستعداد إذا أردت الذهاب معنا. هناك مقعد لك في السيارة. سيأتي ابني يوسف من سويسرا، ونذهب سوية.

ـ صحيح؟ في الحقيقة يا موسيو علي، هذا كثير، ولكن سأفكر في الدعوة، وشكرا جزيلا على العموم.

ـ لا تتردد، ستشاهد حفلا مغربيا بتقاليده وزغاريده. والشقة بالمحمدية في متناولك طبعا.

ـ حاضر يا علي الممتاز، وليس الغالي فقط، سأرد عليك بعد ثلاثة أيام حين آخذ ترخيص العطلة من إدارة العمل.

ـ أسعدت صباحا، إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

...

اتخذ مارسيل المقعد الأمامي بجوار ابن علي: يوسف. وطبعا جلس علي بجانب زوجته، خلفهما. تقاليد الأسرة تستدعي ذلك، خصوصا مع مجيء مارسيل معهم في هذه الرحلة إلى المغرب. لأول مرة يسافرون مع جارهم، وإلى أين ؟ إلى المغرب. سيكون مارسيل ضيفا عندهم.

تجاوب يوسف مع مارسيل في الحوار. فالجيل الجديد يمتلك ثقافة غربية ويمثل عصره في كل قول وفعل. كما أنه يشعره بالانتماء إلى البلد الذي كبر ونما فيه أكثر من الجيل الذي نشأ في طفولته خارج فرنسا، وله ارتباطات وجدانية وثقافية مزدوجة.

كان الحديث عن سويسرا وظروف العمل والدراسة، ثم عن المغرب ومدنه السياحية وشواطئه ومواقعه الخلابة. وكانت تدخلات علي ويوسف تتكامل لإعطاء أكبر قدر ممكن من المعلومات حول المغرب.

ـ من فضلك يا يوسف، توقف في أقرب محطة نصل إليها. هي فرصة تستريحون فيها وأؤدي أنا فيها صلاة العصر قبل الوصول إلى مدينة (ست).

ـ وصلاة الظهر؟ تساءل يوسف رادّا على أبيه.

ـ لقد أديتها قبل ساعة من الآن. حينما كنتما تتحدثان حول مدينة مراكش.

تساءل مارسيل عن طلب علي الذي كان باللغة العربية، أجابه يوسف بجانبه موضحا تفاصيل كل شيء.

ـ كيف؟ تساءل مارسيل هل صليت في السيارة؟ لا أفهم.

ـ ماذا تقول يا أبي؟ مارسيل يسألك كيف تؤدي الصلاة في السيارة وهي سائرة في الطريق؟ لم نرك تركع أو تسجد.

ـ الله سبحانه وتعالى يَسّر لنا أمور الدين. إذا كنت مريضا أو مسافرا، فلا حرج عليك أن لا تقف وتؤدي الصلاة بحركاتها، فقط وأنت جالس أو ممتد. وحتى بالنسبة للصوم، فالمريض لا يجب عليه الصوم بل قد يكون حراما عليه. أنت تعلم كل هذا يا يوسف.

ـ نعم، ولكن مارسيل سألك أنت، أراد منك شرحا وفهما.

ـ سأحاول أن أفهم موسيو علي، تعلم أن هذا صعب علي وأجهله. أنت نافذتي الآن للتعرف على الإسلام. فيلم الرسالة أدخلني في تاريخ ظهور الإسلام، وأنت ستبين لي كيف يكون الإسلام في تطبيقه. اتفقنا؟

ـ اتفقنا مارسيل. تعلم أن الدين المعاملة، لهذا لا يكون المرء مسلما إذا لم يكن حسنا في معاملته.

تنظر فاطمة إلى زوجها راضية على ما تسمعه من كلامه.

ـ كيف؟ تساءل مارسيل، والصلاة أين محلها؟

ـ الصلاة لوحدها لا تكفي. كم منا مخطئ في الأمر. لا بد للمسلم أن يحسن التعامل مع الناس لكي يصح دينه، هكذا أمرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم): الدين المعاملة.

ـ ومع جاره يا أبي. علق يوسف مازحا وخالقا جوا من الانشراح والابتسامة.

ـ طبعا مع جاره ومع مارسيل أولا وقبل يوسف.

ـ هذه ملاحظة جيدة، لكن أنا السائق. تعاملوا معي جيدا حتى أوصلكم إلى المغرب.

ـ طبعا السائق أولا. موافق يا مارسيل؟

ـ موافق، يوسف أولا.

ضحك الجميع لهذه التعليقات.

ـ فعلا الفكرة صحيحة، أتفق معها. وهذا إيجابي في الإسلام، وألمسه معك جاري العزيز علي، الدين المعاملة. هذا تواصل بشري مطلوب عند كل الشعوب، ولكن كيف يكون منبنيا على أخلاق واحترام؟

نظر يوسف إلى مرافقه بجواره نظرة سريعة مبتسمة وهو يقود السيارة مشيرا بالإنارة الى جهة اليمين ليتوقف بمحطة على بعد كيلومترات من مدينة سيت.

ـ لقد عدت بسرعة يا أبي. ألم تؤدّ صلاة العصر؟

ـ أديت ركعتين، صلاة المسافر. يجب أن تعلم هذا، أنت لا تهتم بتفاصيل دينك. ألن تصلي الآن؟

ـ حتى أصل إلى الباخرة.

ـ لا. أدِّ الصلاة في وقتها يا بني. فهذه هي النصيحة التي أستطيع إعطاءك إياها. أما أمور الدنيا فأنت أدرى بها الآن.

ـ حاضر يا أبي. سأقوم بها في الحال ولكن صلاة كاملة.

ـ كما تشاء. رد علي مبتسما ومرتاحا لقيام ابنه بالصلاة المفروضة.

بعد دقائق، جاء يوسف:

ـ مارسيل ! تعال لتتعرف على شيء آخر.

ـ ماذا هناك يا يوسف؟

ـ عندما يكون المسلم مسافرا، يؤدي الصلاة في وقفتين لا أربعة حتى لا يجهد نفسه وحتى يربح الوقت لمواصلة الطريق.

ـ هذا جيد يوسف.

ـ نعم، ولكننا سنبقى في مقهى المحطة ربع ساعة أخرى، لدينا الوقت الكافي. لابد من تناول فنجان قهوة موقظة ومنبهة.

ـ طيب، رد مارسيل الذي لم يكن يعلم طبيعة التفاعلات بين أفراد الأسرة المغربية والخصوصيات الدينية في الإسلام. ها هو الآن في بداية الانخراط المعاين للثقافة الاجتماعية للمغاربة المسلمين.

خروج الباخرة على الساعة السابعة. لا زال أمام المسافرين متسع من الوقت. ساعة الميناء تشير إلى الخامسة وخمس دقائق. لكن الرسو بالسيارة سيأخذ من يوسف جل ما تبقى من الوقت. لذا آثر الجميع البقاء معه داخلها. حتى مارسيل الذي كان يرغب في تناول كأس نبيذ قبل الدخول إلى الميناء، لم يُرِد تغيير برنامج الفريق في الرحلة والرفقة، بقي داخل السيارة.

الْتحق يوسف بالجميع في الطابق العلوي للسفينة بعد أن تركوه يرتب ما شحن فيها من أمتعة. بعد ذلك ذهب كل إلى غرفته ومقامه بعد أن تأكدوا من أرقامها بأكملها اطمئنانا على أعضاء المجموعة المسافرة. بالنسبة ليوسف ومارسيل، ربع ساعة كانت كافية ليرتبا نفسيهما ويعودا إلى مقصف السفينة خارج ممر الغرف مباشرة. جلسا لطاولة راسية وملتصقة بالأرضية الخشبية المفروشة ببساط سميك. لم يكن عدد المسافرين بذلك الازدحام الذي يقع معه الاكتظاظ بداية عطلة الصيف. فموسم العبور الكبير لم يبدأ بعد.

نادى يوسف على فنجان قهوة، بينما طلب مارسيل كأس نبيذ.

ـ ألا تشرب الخمر يا يوسف؟

ـ لا.

ـ هل سبق لك تناولها؟

ـ نعم في مرحلة بالثانوية والدراسة بالمعهد بباريس. كنت معتادا على ذلك، لكن الآن توقفت.

ـ لماذا؟

ـ صحيا، علميا، دينيا كذلك. أشياء كثيرة تغيرت عندي منذ مدة.

ـ كيف؟ لم أفهم؟

ـ سأحاول تفسير ذلك، لكن لا تنزعج. فعادتي حين آخذ الكلمة أن أطيل في التحليل. هذا ما يلاحظه علي أصدقائي.

ـ لا عليك يا يوسف، أنا سأتابعك في كل كلمة ستقولها.

ـ طيب، سألتني عن تناول الخمر. ببساطة، وأولا: صحيا، لها آثار وخيمة على أعضاء الجسم وأنت تعلم هذا. وهي تسبب الإدمان ولك أن ترى حالة المدمنين لتحكم على آثارها. لك أن ترى كذلك البرامج الصحية كيف تتحدث عنها وعن أضرارها. انظر برنامج الصحة على القناة الخامسة. كلها انتقادات ولو لكأس واحدة من الخمر يوميا، صحيا وطبيا. حتى إن هناك تحركات للمجتمع المدني ضد تناول الخمر والإشهار المتعلق بها. أصبحت تحاربها مثلما تحارب المخدرات سواء في فرنسا أو في سويسرا. حتى المستشفيات، هناك أرقام مهولة في فرنسا حول المعالَجين من آثار الإدمان على الخمر، يفوق عددهم النصف مليون شخص. أمر مؤسف فعلا. الحمد لله أن اهتمامي بالرياضة والتزامي بفنون الحرب ساعدني كثيرا على الابتعاد عن تناولها ولو حتى في المناسبات مع الأصدقاء.

ـ عندك حق يوسف، لكن العادة وثقافة العيش تفرض علينا كل هذا. إنما كيف تقول دينيا ما دام اقتناعك بالابتعاد عنها علمي وصحي؟

ـ تعلم أننا أسرة مسلمة. والإسلام يحرم الخمر. في وقت سابق كان موقفي من الاسلام موقف شخص يرى فيه عقبة أمام الاندماج بين الشعوب الأوربية والغير أوربية. أتفهّم انتماءك وعدم فهمك لهذا الجواب، فهو صعب شرحه. ربما يشعر به صاحبه أكثر مما يستطيع التعبير عنه بشكل واضح. وإنني أشترك معك في كثير من الأمور التي لا زالت غامضة عندي تجاه الإسلام. لكن هذا لا ينفي تأثري الكبير به مؤخرا.

ـ كيف يا يوسف لا أفهم، ما علاقة الحديث عن الخمر بكل ما تقول؟

ـ قلت أشترك معك في الانتماء الأوربي. فأنا مولود في أوربا وتعلمت وتربيت بالثقافة الأوربية. لكن تعلم أن الهوية تركيب معقد والدين جزء منها وفيها. علاقتي بالإسلام

عرفت تطورا كبيرا منذ مدة. بالضبط مع بداية التسعينيات. كنت في البداية أنظر إلى المغاربة كشعب لا يريد التطور واللحاق بالغرب، مُتَعَنِّت ومتزمت. لكن تفاعل الأحداث السياسية دوليا جعلني أدخل إلى بوابة في التاريخ أنظر إليه من زاوية جديدة. إضافة إلى قراءاتي لبعض المثقفين العرب والمسلمين باللغة الفرنسية. بدأت أكتشف أسرار ومفاتيح العلاقات الحضارية. لقد استفدت كثيرا من إدوارد سعيد، محمد أركون. قرأت للصراع العربي الإسرائيلي، أسبابه، تطوراته، دور الغرب فيه. على العموم هذه المواضيع جعلتني أقرأ الإسلام من منظور خاص بي لا أتفق فيه مع مجموعة من الكتابات المتشددة والمتطرفة، يجعلني أتخذ موقفا مدافعا عن حق الشعوب في التحرر والتطور والتقدم. مشكل العولمة كذلك دفعني لأنخرط في جمعيات تدافع عن البلدان الفقيرة وتكشف فظائع الاستغلال الإمبريالي الذي تمارسه الشركات الكبرى على الدول الفقيرة، والحروب التي تمولها وتقودها باسم مبادئ خادعة وتحت غطاء سياسي للحكومات الغربية التي تنفذ مصالحها بحثا عن الربح المادي، ضاربة بعرض الحائط كل القيم الإنسانية والحقوق التي تستحق التمتع بها.

مواضيع كثيرة جعلتني أكتشف هوية جديدة بداخلي، هي إسلامية أكثر، دون جعل شرخ مع انتمائي الفرنسي الأوربي الذي تربيت فيه وتعلمت ثقافته ومبادئه. وهذا ما أحاول النجاح فيه. اكتشاف الهوية من جديد، هذا جعلني أحترم الدين الاسلامي وما يدعو له من قيم إيجابية. ومنها عدم شرب الخمر. تصور أنني كنت مطلعا على كل سلبيات الخمر، ومقتنعا بأضراره الصحية وأخطاره، لكنني كنت أتحدى هذا الوعي، لم أرد ترك شيء يجعلني أحقق نشوة. أجد آية قرآنية أكثر موضوعية في عرض المسألة. تجعل للإنسان الخيار. تميز بين نقيضين. تغلب جانبا على آخر. عليك أن تكون من يجرب بتحليله واستنتاجه، ولك أن تقبل الحكم في نهاية المطاف. إذا كنت منطقيا وذا عقل مييز فستتفق معها في مقام هذا الموضوع. اِسمع لذكرها يا مارسيل، وقلْ لي رأيك: (يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما)[1].

[1] ـ سورة البقرة، الآية 217.

ـ تتحدث عن أمرين اثنين وليس واحد. يبدو أن الجدلية منطق تناول الأمور في القرآن. ألمس نفَسا ماركسيا في المعالجة.

يبتسم يوسف لاستنتاج مارسيل ويحتاج لبيان وتمييز أكثر:

ـ في الحقيقة، الجدلية التي تتلكم عنها موجودة فعلا. وهذا يدخل في التحليل الموضوعي والمنطقي. الجدلية ربما تجعل البديل عن النقيضين. هنا نجد تغليب الأثر والمصلحة، والميل لما يحافظ إيجابيا على المصالح والمنافع، ومن بينها لصحة والمال. المال في منع الميسر، والصحة في تحريم الخمر.

رغم كل هذا، أعود بك إلى مرحلة شبابي. قد يخونني التعبير. كنت أرى الخمر رمزا للانتماء، لثقافة وجماعة أصدقاء ونمط الحياة الغربية والتحرر. لكنه الآن ذهب وهْم هذه الوسيلة. فأنا أشعر بالانتماء وأتبنى الثقافة دون حاجة إلى ما هو مادي للشعور بها. والحمد لله، لقد انتبهت إلى وجود جماعة أصدقاء وأسر كثيرة في فرنسا وسويسرا بدأت تنسى ثقافة الخمر، رغم كونهم مسيحيين، لأن الوعي الصحي والطبي أولى. أصبح شعار هؤلاء: صفر كحول خلال السنة. ربحوا الصحة، والمال، والسلامة والإيمان بالقضية. لم تكن المسألة سهلة. الثقافة الاستهلاكية داخل المجتمعات الرأسمالية تلعب دورا كبيرا في إقناع الناس بضرورة استهلاك مواد معينة حتى تحافظ على انتمائك للعصر وللتقدم والتطور الذي تعيشه داخل مجتمعك. إغراءات الإشهار والسينما والتلفزيون، كلها منظومة محكمة للإقناع والتنويم الذهني والإخضاع. والإيمان لا يحتاج إلى مخدر لتعزيزه. هكذا فكر يوسف الجالس أمامك.

ـ تابع يا يوسف، يعجبني كلامك وتحليلك.

ـ في الحقيقة نحن نتحدث عن الخمر، وها نحن نعدد المواضيع عن العلاقات الدولية والحضارية. نسيت أن أسألك: كيف هو حال هيلين؟ بخير؟ لم أعد أراها معك؟

ـ إنها بخير. لقد عانت من أزمة نفسية حادة واحتاجت إلى الراحة والانعزال. احترمتُ موقفها وقرارها. الآن هي في قريتها شمال غرب فرنسا. في الحقيقة أنا كذلك تفهمت

معاناتها. فجزء منها موجود كذلك بدواخلي. توترات داخلية لا أدري ما سببها. تعب الحياة والعيش. ولذلك احتجت أنا كذلك للسفر وتغيير الجو. أبوك، سي علي، أصبح قريبا مني، نحن الآن أصدقاء وجيران في آن واحد. لقد تناولنا فنجاني قهوة وتبادلنا حوارات عدة. كما أنني تناولت الكسكس الشهي من إعداد والدتك فاطمة.

ـ بالصحة والعافية. أنا لا زلت مدينا لها بقصعة كسكسية. أظن أنني سأحصل عليها حين نصل إلى المغرب.

ـ تعلمْ، مشكلة هيلين هي مشكلتي. فراغ داخلي لم يعد هناك أي ارتباط بمبادئ مجردة كبرى، ولا إيمان. فقط العلاقات الإنسانية التي لا تكون دائما مثالية وجيدة. لقد حاولت زيارة كنيسة بمدينتنا ليون لكي أطرق هذا الداخل الملح وأحاوره إن كان موجودا فعلا، لكنني لم أتجاوب لا مع فضائها ولا مع وظيفتها ولا مع أي كائن أو شعور. يبقى ضغط هذه المسألة موجودا، ولكنني أجهل سره وسببه وما يؤدي إليه. ما زلت أعيش على أطلال أحداث سنة ثمانية وستين. كانت مبادئ أؤمن بها أنا وهيلين كأنها معتقدات دينية. أردنا أن نحقق حلما للإنسانية يخرجها من غياهب القرون الوسطوى. آمنا بأن رسالتنا عالمية. وكأننا أنبياء ديمقراطيون. هه. الآن انقشعت سحب سمائنا، وتعرّت من أحلامنا. أصبحنا نرى سقف العالم الكبير والبعيد عن أمل تحقيق مثالياتنا.

خلال أحداث ثمانية وستين، لم أكن منظرا ولا متفلسفا. كنت مجرد شاب آمن بالحياة وببعض مبادئ تكفيه كعتاد لكي يعيش، ولكي ينشر قناعاته ويدعو الآخرين لها. يبدو أن ملائكتنا كانوا إخوة الشياطين الذين حاربناهم. وكأنها لعبة فقط. حينما ينتهون، يعودون لطاولات مسامراتهم.

...

ـ أهلا موسيو علي. ارتحت جيدا. ستتناول وجبة العشاء معنا؟

ـ لا شكرا. جئت فقط لأقول لكما تصبحان على خير. أستيقظ باكرا للصلاة، لهذا يجب أن أنام باكرا.

ـ يوسف، نحن كذلك يجب أن نستريح. خصوصا أنت، فقد قُدت السيارة طوال هذه المسافة. سنتمم الحوار غدا. مجموعة من الأسئلة لازالت في ذهني الآن. غدا نتمم النقاش. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

وقف مارسيل مواجها ريح البحر الصباحية. متأملا أمواجا هائجة صماء. مستمتعا بصوتها، مفرغا شحنات مدفونة من التوترات. كانت سيجارته غيمه الذي يملأ فراغ بصره وذهنه. ماذا ترك وراءه؟ لا شيء يربطه بوجدانه. فراغ داخلي يجعل شربه للسيجارة يشعل نيران داخلية ويخمد حسرات حامية. جاءت خطوات يوسف لتخرجه من فضاء تيه أزرق جمع بين السماء والماء.

ـ صباح الخير.

تحية تبادلها الرفيقان في وقفة الإطلالة البحرية.

في مذكراته الخاصة، سجل يوسف على صفحاتها ما خطر بباله وفكر فيه حول حواراته مع مارسيل. رأى تناول موضوع إسلام مارسيل ودخوله في دين الإسلام. كيف سيكون من زاوية موضوعية وحضورَ حرية شخصية وحق ديمقراطي يمارس في الرفض والقبول؟ تماوج الحبر مع هدهدة السفينة عبر بساط البحر، فسجل بساط المذكرة وبياضها زرقة كلمات جديدة:

(أتساءل عن اعتناق الإنسان لدين جديد. عقيدة جديدة. يؤمن بها، تتطلب تسليما عقليا بكل المعطيات التي توجد في هذا الدين. والتسليم العقلي لا يعني الانبناء على أدلة عقلية منطقية وبراهين وحجج واضحة. فالمسألة نسبية. كل واحد يوفر فيها الحد الأدنى الذي يخلق له الطمأنينة النفسية والروحية والتوازن لشخصيته، والشفاء المعنوي لكل التوترات والتحسرات والمخاوف والارتباكات.

حينما أطلب من الآخر ـ أنا كمسلم ـ أن يعتنق الإسلام، عليّ أن أفكر أنا كذلك كيف إذا دعاني إلى دينه واعتناق مسلَّماته؟ كيف إذا استطاع ذلك؟ كيف تكون قابليتي للأمر؟ إذًا، كذلك بالنسبة للآخر الذي أريده الدخول في الإسلام.

لن أكون أنانيا وأقول له إن ديني أفضل الأديان، وأقصي باقي المعتقدات التي هي بناءٌ روحي وحياتيّ جوهريٌّ في سلوك الإنسان وراحته المادية والمعنوية، وسلامة علاقاته مع محيطه ومجتمعه وبيئته. إذا ما رأيت نفسي خارجا من ديني معتنقا دين الآخر، رأيت الآخر كذلك كيف يخرج من دينه ويدخل في ديني.

أولا، عنصر الإيمان ينبني على قناعات وثوابت ومسلمات. ما هي درجة تسلحي الفكري والمنطقي بالأفكار التي تجعلني أتخلى عن بناء فكري الديني واعتناق بديل آخر فلسفي أو مذهبي أو غيره؟

ما هي درجة تحقيق توازني النفسي وراحتها في علاقاتي مع الأسرة والتربية والمجتمع والنظام والقانون؟ أي إعصار هذا سأكون مُقْدِما عليه، داخل زوبعته، ولا أدري ما مآله، ما مصيره؟ هو خوف هائل يمتلكني. ترسخت ثوابت الجزاء والعقاب، الوعد والوعيد في نفسيتي، كل صغيرة وكبيرة في سلوكي مرتبطة بهذا البناء المتراكم منذ الصغر، والمتداخل مع الحب والرضا، مع الاستفادة من كل مميزات الحياة الثقافية والمادية والمجتمعية، سلوك إشراطي يجعل الخروج عنه تهديدا مَرَضيا بالانهيار، وإي انهيار هو !

هو الهبَل والخلل النفسي، والهلع والخوف المرضي يمتلكني، ساكن في سلامتي الحالية، متهيج ومتزوبع حين زعزعتي لهذا البناء المركَّب في شخصيتي، المرتبط بالفكر الديني.

ثانيا، سياق الزمن الثقافي والاجتماعي الذي أعيش فيه، أشبّهه بسياق الغلاف الجوي الذي يحيط بالكرة الأرضية، ويجعل شرط الحياة متحققا فيها، وأي حياة؟ والمشكل أن هذا الشرط في الفكر الديني، هو شرط حياة في الآن، وشرط حياة في الآخرة، ما الضامن لك؟ خوف مرضي يمتلكني، يجعلني لا أطيق تفكيري المنطقي وتحليلي العقلي، قد أشاهد انفجاره، مادام العالم لا ينفجر، يسير في خط مجهول عندي، لا أعلم مآله، ولا تفسيره لما قبل الحياة، ولماذا الحياة، وما بعد الحياة؟

ثالثا، عنصر التشكيل، لوحة بلا لون، أصبحت مرسومة، متداخلة في كل ثقب أو خلية، في كل خيط منسوج وكل سلوك فيها.

مادام التشكيل قد صنعه التاريخ والمجتمع والثقافة والتربية، فأنت نسخة مصنوعة طبق نموذج ما، منتوج خارج من نفس المعمل الخاص بهذا النوع من الصناعة. ينتج الطفل المتوحش سلوك الحيوان والغابة والطبيعة، ينتج الطفل المتدين سلوك المطيع، الراكع والمتعبد. وبينهما إنتاج ثالث أو أعداد إنتاج لا تحصى. هي لا تحصى إذا، لكن هذا التكوين طاقة محركة موجهة ومبرمجة، لا بديل لك عنها لتبقى في توازن في تحليقك في هذه الحياة كما تحلق طائرة في السماء، ما دامت هذه الطائرة لا تمتلك سوى هذه الطاقة وهذه البرمجة، لابد منها، لا استغناء عنها.

كذلك أنا! أنا!؟

...

سامحوني إذا اخترقت خصوصية كل واحد منكم، وأنانيته وعالمه الخاص، ما دمت اخترقت دواخلي وعالمي الخاص. لن تكون غرابة هذه الرحلة الداخلية العميقة، لن تكون انزواء وانكماشا، ولا توقفا لحركة الحياة والمجتمع. هي رحلة جعلت نفسي نائبا عنكم فيها، رحلة الموت، وقبلها رحلة هذا الإعصار، ستنتظرون النتائج والحكم والعبر. لا أظن أنكم ستقتنعون بها، ولا أظن أن الكل سيجرؤ على تجريبها. سيقول البعض كان مرتاحا بعدم خوضه فيها. ولكني أقول لكم لست إلها لكي تنتظروا المطلق والخلاص والبلسم والبديل مني، ما دامت أنانية كل واحد منا طامعة في مصالحها، لست نبيا ولا رسولا ولا ملاكا حتى أحقق توازن أنانياتكم وأعيد ترتيبها في تناغم كوني حياتي جديد، في رحلة وجودية بديلة لما ترتقبونه. لا غيب لي، لا أحلام أساطير أبني بها أفكار أطفالكم وقلوبكم، لا تمنّي عندي أعدكم به، لا ولا، ولا.

هي رحلة إذا، مثل هذه الرحلة البحرية التي أقوم بها مع أسرتي ومع ضيفها مارسيل. سفينة شراعية هي، رغم أن هذه التي نقوم بالرحلة على متنها متطورة اليوم. لكن الرياح حاضرة، هذه التي تتلاعب بالأمواج، وتجعل القوة لمدها وجزرها، ولحركتها

التي يتنفّس بها هذا البحر الأبيض المتوسط. لا فرق بين هذه وتلك. رحلة نفسية ووجدانية مشابهة لمثيلتها البحرية المادية. لكن هذه الرحلة القائمة الآن، يتم فيها نوع من الاختراق، من الغوص في الأعماق من أجل البحث عن الحقيقة. قد تكون مثل اللؤلؤ والمرجان، لكنها جواهر معنوية ومجردة غير مادية. ماهي؟ أين هي؟ دوركم في البحث عن كل هذا).

(حينما أردت جعل مارسيل يدخل في الإسلام، يتخلى عن فلسفته الوجودية والمكونة لحياته الغربية بكل مميزاتها الحضارية وكل سلبياتها، كنت ذاتيا أكثر في إسقاط تعاليَ الأناني الديني، أرسي سفينة النجاة، وكأنني الرسول نوح الذي ينقذ المؤمنين، لكي أتكرم على مارسيل بالصعود إليها ومتابعة الرحلة في الدنيا والآخرة، يا لي من ربان رائع وأسطوري ! أتريدون ركوب السفينة، سفينتي في رحلة الدنيا والآخرة؟ سفينة نوح أنقذت أصحابها من الخلق في الوقت المناسب من الغرق، أما سفينتي فهي رحلة رائعة، هانئة ورائعة، بدون تخويف ولا تهديد، عيادة طبية للعلاج النفسي والروحي).

(ماذا لو اكتشف مارسيل أن سفينتي غير صالحة، أو هي وهمية، أو فيها نقص وغير مضمونة؟ طبعا لا يقبل الربان القروسطي هذا النوع من الركاب، سيهدد التوازن الموجود والثقة في كل شيء).

(رُكّابي آمنون،لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. لن أوقظ الفتنة فيهم. ولكن، ماذا لو أن الركاب يخدعونني، يجاملونني، أتوهم القيادة بينما كل له قيادته الخاصة، داخل مسار هذه السفينة؟ متاهات).

...

من بين ما دونه يوسف في مذكراته التي ترافقه في مسار حياته، كانت كذلك تعليقاته على سفر مارسيل مع عائلته. دائما يجعل برجا للعقل يفكر في علوه مجردا عن كل المؤثرات الصغيرة التي تجعل رؤية الأشياء ضبابية وغير مفهومة:

(لا أدري. حينما دخل مارسيل إلى المغرب، اكتشف واقع مجتمع مسلم ولم يكتشف إسلاما نموذجيا. في ليلة أو حفلة الزفاف المقامة بالطقوس البدوية والممتزجة بالأساليب العصرية، اكتشف مارسيل أشخاصا عاديين طبعا، لهم ارتباط بالمادة والرغبة، لهم انبهار بالمتعة والمصلحة. أشخاص عاديين جدا. فيهم المتزن في نظرته وجلوسه، وفيهم المشتعل حيوية ورغبة. شباب يتناولون خمرا وجعة بعيدا عن أنظار الكبار والصغار. فتيات تتبادلن النظرات والابتسامات، ترقصن للطرب، تفرغن ما تراكم في هذا الجسد، تسرحن شعرهن لحركة السماء وصهوة الجياد.

مارسيل، الضيف الأجنبي المرافق للشخص المحترم في القرية، كان محط أنظار، كل الأنظار. الكل أراد التعارف معه وإشراكه في الحفل والتقرب منه. حميمية كبيرة عاشها مارسيل، رأسمال مفقود في بورصة القيم الغربية. تعددت جلساته ليلة العرس، بين شيوخ القرية بجلابيبهم ودعائهم وكتابة عقد الزواج، وخروج للاستجمام وشمّ هواء وتدخين سيجارة وجلوس تحت أشجار الزيتون القريبة من خيمة العرس، وكذا تناول قنينات جعة مع شبابها، وتبادل حديث متقطع معهم، وبين دخول ساحة الرقص واحتفال الجميع بالضيف. حتى النساء والعريسين، كلٌّ تجرأ وأطل على هذا "الرومي" في حفله التقليدي المغربي، حتى الفتيات تحدّين ورقصن معه بحركاتهن البطنية والصدرية، كأنه ضيف شرف، لا يلام في اختراق قواعد الأعراف والتقاليد وفي الرقص معه).

...

تجربة فريدة عاشها مارسيل فعلا، ومتداخلات عديدة راكمها في ذهنه. لا يستطيع أن يرتبها بأكملها لحظة واحدة، لكنها اخترقت عالمه وذاكرته وتجربته وحواسه وتواصله، شاء أم كره. ما جاء بعد ذلك من الأيام انبنى على هذه التجربة أكثر. الكل أصبحت له علاقة بمارسيل في المقهى أو الولائم، في التواصل مع مستضيفه.

بين فيلم الرسالة وشخصية جاره علي وما عاينه من واقع وثقافة هذا المجتمع، ما يدعو للقلق والتساؤل حول ما هو الإسلام؟ ماذا أريد أنا من هذا الدين؟ هذا المجتمع؟ هكذا طرح مارسيل بعض هذه التساؤلات على نفسه. عاش عالمه الذهني المرتبط بمثل

هذه التساؤلات داخل هذه التجربة السفرية الجديدة. كانت هناك حياة جديدة ترسم قدرها لشخصية مارسيل، بين سفره الواقعي ومذكرات يوسف التي شكّلتْه بأفكارها وتحليلها.

في رحلته إلى مدينة المحمدية، رافقه يوسف ليوم واحد، ورتب له بعض شروط الإقامة، كما عرّفه على بعض الأماكن وشواطئ المدينة. ها هو الآن ذلك الضيف، السائح، المقيم في مدينة مغربية. يفتح حقيبة سفره فيجدها مزينة بهدية الجلباب الأبيض الذي قدّم له ليلة حفل الزفاف. شجّعه الكل على ارتدائه لحظتها، صفقوا وهللوا لحلته التي جعلته في صورة مسلم غربي فرنسي بعينيه الزرقاوين. انبسط الجل وشعر باندماج مع الضيف الجديد. وكأنه انتصار ما بعده انتصار، فقد استطاع الجلباب أن يجعل مارسيل شخصية إسلامية ومغربية للحظة. حتى إن بعضهم ناداه: تبارك الله على الحاج مارسيل.

سليمة

(سليمة) فتاة في سن التاسعة والعشرين من عمرها، باندفاعها الأنثوي، وقامتها ورشاقتها، اخترقت كراسي مقهى (الحورية الزرقاء). حيّت بالفرنسية مارسيل، تفاجأ وابتسم بعرض قسماته وتبادل التحية مع الفتاة.

ـ ألا تتذكرني؟ أنا من قرية عائلة سي علي ويوسف ابنه. كنت في ليلة العرس ورقصت معك فيه بقفطاني الأحمر.

ـ آه، تذكرت كيف حالك بخير؟

ـ الحمد لله. هل أعجبتك المحمدية؟

ـ جميلة جدا، تفضلي بالجلوس.

ـ شكرا. أنا سليمة، أعيش هنا بالمحمدية، وأزور القرية كل مرة.

ـ تشرفنا، أنا مارسيل. لقد أعجبني الجو في المغرب والحياة فيه.

دعاها مارسيل لشرب شيء ما. كانت قهوة في فنجان. استسمحت في طلب ولاعة منه. فتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجائر (مارلبورو لايت). ناولته واحدة. كان هو من بادر وأخذ القداحة من يدها وأشعل السيجارتين، مع تضامّ اليدين بينهما واسترخاء الحركة بطلاقة كبيرة.

لم يتوقع مارسيل هذه الرفقة الجديدة. استرسل الحديث بينهما وسط جو الشاطىء المغربي الاحتفالي. كل واحد منهما مَوضَع الآخر في شخصيته وهدفه من هذا التواصل.

اتخاذهما لمسير ومشي على طول كورنيش الشاطىء عند غروب الشمس أعطى فسحة لرغبة في الرفقة واستمرارها.

(سليمة)، بنت القرية التي استقرت بالمدينة. استطاعت أن تحصل على منصب شغل بمعمل للنسيج لمدة سنوات، ثم سكرتيرة بإحدى العيادات الطبية. لكن العمل أصبح متقطعا وموسميا في بعض الأحيان. تداعيات الأزمة الاقتصادية وإغلاق المعامل جعلها في خضم الحياة تبحث عن بدائل لضمان مستقبلها، رغم أنها استفادت من ثمن كراء رخيص لشقتها السفلية التي تسكن فيها، إلا أنها مضطرة للبحث عن مداخيل إضافية مع الرواتب الهزيلة التي يعرضها القطاع الخاص وتلاعباته على الشغيلة بعدم التسجيل في مؤسسات الضمان الاجتماعي وغيرها.

ما يزال أفراده عائلتها يظنون أن ابنتهم تشتغل مستقرة في عمل واحد يكفيها لتدبر أمور الحياة ومساعدة أفراد أسرتها. وهي كامرأة يُكلّفها الحصول على لباس لائق بقامتها وحسنها وتجميل مستمر ولوازم حياتية مصاريف مهمة، ما يجعلها تقيم علاقات، هي صداقات يتفهم أطرافها ظروف العيش ووضع سليمة فيها. تحاول أن تغطي ما تحتاج له في حياتها بفضل هذه المساعدات. تدرك أن غدر أو فشل علاقاتها السابقة في الحب والرغبة في الزواج قادها لهذا الوضع. لا تدري من الفاشل أو الخاسر في كل هذا، هل الرجل ام المراة؟ هي ترى أن الكل خاسر فيها سواء كان رجلا أو امرأة. في نهاية المطاف، تجد المدمنين والخاسرين من الجنسين معا. تطمح لاستقرار وعمل، لكنها تريد كذلك علاقة فيها إخلاص وأمل،.كيف تستطيع ذلك. في جل تجاربها كانت تستحضر النية الحسنة كمنطلق. ربما سيغلب الحلال الحرام؟ ربما هذا الحلال قد ضاق به المقام وانسدّتْ أمامه سبل التحقق؟ ربما هو قدر ارتماء كل من يعيش داخل المدن الكبرى في هذا الخضم؟

تبدو عليها الحيرة في حوارها مثلما تحاول أن تكون جدية فيه. تعتذر لتفريغها همومها على مارسيل. تعود الابتسامة، تتجاذب الأذرع وتحتك خلال المسير. تقبل رهان المغامرة. على الأقل هي أقل خطرا من مغامرة هذه الأمواج التي تزحف صامتة في هدير مسترسل

هذا المساء. وهذا البحر الذي كم من مرة ناجَتْه، لكنه قد يشفي دواخلها مرة مثلما أنه قد يجعلها في هيجان متقد.

تقبل سليمة دعوة مارسيل لوجبة العشاء، وتتوفّق في اختيار المكان المناسب والشاعري، مادامت هي بنت المدينة التي حلّ بها مارسيل ضيفا وسائحا هذا الصيف. مع ضوء الشموع وبعض كؤوس النبيذ وقنينة رفيعة، اختمر العقلان، وانتسبا لجو ألف ليلة وليلة ونبرات صوت سليمة مع بعض مقاطع موسيقية طربت بمسمعها ربما أركان المطعم وزبناؤه. كان مارسيل الضيف والمستضيف، كما كان الحكيم في جلوسه وحواره، أين هي حماقاته مع نغمات إديت بياف؟

ليالي الصيف لا تنتهي، يستمر السهر والتحرر من قيد الزمن الساعاتي، إلا ما يأتي من ضوء النهار. داخل العلبة الليلية شعر مارسيل بأنه استعاد شبابه رغم خمسينيته. أوصلهما سائق سيارة الأجرة الصغيرة هما الاثنين إلى مكاني إقامتهما، مارسيل ثم سليمة. تواعدا باللقاء بعد الزوال أو مساء بحسب إمكانية استرجاع الراحة والنوم الكافي لهذا اليوم الجديد.

- على العموم الهاتف بيننا: أوكي؟

- أوكي.

حين تناوله لقهوته الأولى هذا اليوم، تذكر مارسيل جاره عليا، كرمه، احترامه، أخلاقه، التزامه. تذكر بعض مشاهد فيلم الرسالة، بعض قراءاته الإعلامية التي تشكل بعض فهمه للإسلام، حواره خلال الرحلة من فرنسا إلى المغرب مع يوسف. لمَ هذا الخيط الرابط بين كل هذه الأركان والزوايا؟ المقارنة؟ ما هو الإسلام؟ أهو ليلة أمس مع سليمة؟ أو ما كان يعرفه عن الإسلام؟ أهو دين أم مجتمع؟ استجمع مع هذه الأسئلة نسق معلومات ومقومات فكره الفلسفي الوجودي، وبعض أفكاره الاشتراكية المادية، وحريته في نهج الحياة. رأى أمامه خمسين عاما مضت. مرآة وضعها يلاحظ فيها قسمات مشاهدها: في هذا المكان، هذه المدينة الشاطئية المغربية:

ـ مارسيل، تركتُه في فرنسا، في أوروبا. من أنا الآن؟ أنا إنسان طبعا، وهؤلاء بشر مثلي، نختلف في اللغة والثقافة، ولكن نتوافق في التواصل والرغبة فيه. ماذا لو فكرت في التقاعد والاستقرار بالمغرب في هذه المدينة مثلا؟ لمَ لا. في تقرير تذّكره في جريدة ما، ربما مفضلته بفرنسا للقراءة الليلية، مجموعة من المتقاعدين وجدوا المسألة مُربحة في العيش في بلدان جنوب متوسطية. يستطيعون بها تحسين تدبير أموالهم ومدّخراتهم، والعيش في بيئة نظيفة أفضل من أوربا. مادام العالم قرية صغيرة أو هو دولة سياسية كبيرة يعيش المرء داخل قوانينها.

في إشعاله لسيجارة، تذكر رائحة وبسمة ونظرات سليمة: في الحقيقة، الرفقة ضرورية. ماذا لو دعوت سليمة لتكون معي خلال هذه الأيام في المحمدية؟ هل ستنجح العلاقة بيننا وتكون لها حظوظ التوافق؟ ليس لي أي التزام جدي بفرنسا؟ هل ستكون صداقة أم رحلة جنسية كما يسمع عنها في دول جنوب شرق آسيا؟

ـ ألو سليمة.

ـ آلو ـ صباح النور.

ـ صباح النور ـ ألا تزالين نائمة؟

ـ نعم.

ـ طيب، ما رأيك نلتقي في الساعة الرابعة بمقهى أمس، أظن اسم المقهى (الحورية الزرقاء)؟ صحيح؟

ـ نعم، سأحاول أن آتي في الموعد. إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

(يعيش كل منا حياة ذهنية داخلية، عالما خاصا غير مرئي، مِلك خاص لا يخترقه سوى صاحبه، تفكير ومشاعر، ذاكرة وطموحات وأحلام، توقعات وأوهام... كل هذا عالم داخلي يرتب ويعاود الترتيب وعمليات التفكير، فيصدر القول والفعل والتصرف).

فكرت سليمة في هذا التواصل الجديد. لم تكن من الفتيات المتسيّبات إلى درجة عرض الجسد على كل مارٍّ. بالعكس، فكرت في حريتها واستمتاعها بالحياة، عدّدت التجارب والعلاقات، لكنها كانت صداقات فيها حد أدنى من القيم المحفزة على الارتباط والاحترام. لذلك وحينما فكرت في الاتصال الهاتفي الذي قام به مارسيل، وضعت كل الاحتمالات: سيفكر في دعوتها إلى قضاء الليلة معه. فعلا، انبسطت معه ومرحت ورقصت وتحاورت. لكنها كانت تدرك حدودها الشخصية، لا تراه مناسبا لها في علاقة طويلة، من ناحية العمر، ثم من ناحية الانتماء. هو أوربي، فرنسي ليس بمسلم. طبعا ليس بمسلم. رغم كونها متحررة في حياتها، مخترقة لعالم محظور دينيا، لكنها تبقى مؤمنة بالله والإسلام. حينما تبقى في بيت سكناها لأيام دون خروج، إذا كانت متوقفة عن شغل وباحثة عن فرصة عمل أخرى، تلجأ إلى طهارتها، صلاتها، سجادتها، دعائها...

"كلّنا أطهار إلا ما لوّثه الزمن فينا". ذاك شعورها الذي يخالجها. كانت ترسم في ذهنها حياة امرأة متزوجة لها بيت وأولاد تسهر على تربيتهم تربية حسنة، بأخلاق دينية طيبة للأولاد الصالحين، مع زوج يحترمها، يوفر لها مناخا اجتماعيا، وهي توفر له مناخا أسريا وسعادة داخلية لأسرة سعيدة... كانت ترى في العالم الخارجي الذي يفرض عليها الاستمرار فيما هي عليه من ذكاء وحذلقة وإثارة وتحكم في العلاقات، حتى تضمن من يؤنس، يساعد ماديا، يحمي اجتماعيا... حتى تحارب غربة داخلية ووحدانية قاتلة إن هي فرضت على نفسها انعزالا ما...

كانت ترى في هذا العالم الخارجي جحيما كذلك وعذابا يخترقها، لأنه يأخذ منها أكثر مما يمنحها، يأخذ منها شبابها وجمالها، يسرق منها عمرها وجهدها. ولكن، ماذا بعد؟ ما مصير امرأة بدون بيت وبدون زوج ولا أولاد؟ ونزعة الطبيعة الفطرية المرتبطة بالأمومة وحب الاحتضان للأولاد حاضرة، كأن غرائزها هي التي تقوم بترجمة حيويتها إلى مشاعر وأفكار وتصورات، دون أن تدرك هي ذلك. ما الخلاص من هذا الجحيم في مجتمع يشرد أطفاله منذ نعومة أظافرهم، ويرمي شبابه لحيتان البحر في ريعانهم، وعطالة عن العمل يعاني منها ومن قهرها المتعلم قبل الجاهل، وصاحب الديبلوم أكثر من المنقطع عن الدراسة والتعلم؟ ما الخلاص من هذا الجحيم؟

لا تؤمن سليمة بحل الزواج من غير مسلم. لو كان جزائريا أو مصريا، نعم. ممكن. لكن، غير مسلم، لا يخطر ببالها، رغم أن الظاهرة انتشرت، وأصبحت مكسبا ماديا لعائلات، وحلًّا لأزمات. من الخاسر ومن الرابح؟ الله أعلم. تساءلت سليمة في دواخلها، ورأت نفسها الخاسرة. قليل من الكسب والسعادة أفضل من عُملة صعبة وتعاسة، هكذا تجنّد ذهنها بمنطق تصُد به هذه الأفكار المغايرة لما هي مقتنعة به.

تتذكر صديقتها حفيظة التي أغراها المال فتزوجت بإيطالي، وفعلا جنت ماديا وأنجبت طفلا. اشترت منزلا بالجديدة، وجعلت أختيها تستفيدان من هجرة إلى إسبانيا وإيطاليا. لكن ما السر في انقلاب مواقفها؟ فجأة تمردت على وضعها ونفسها، اكتشفت فقدان شخصيتها وشخصها. فجأة، توقفت عن معاشرة زوجها، غيرت لباسها، طلبت منه الدخول إلى الإسلام، ومع ضغطها أسلم. في الصيف الماضي أقامت حفلا، كتبت فيه عقد زواج من جديد يعطي الشرعية لعلاقة حفيظة بزوجها ! كان بحضور عدلين اثنين وشهود، وتوثيق شرعي إسلاعي على سنة الله ورسوله. هكذا أرادته من جديد.

كانت تشعر بأن الاغتراب يسلخها ويجتث دواخلها فيسحقها سحقا. يقتلع منها أنفاسها وهويتها. ضد التيار وضد الانسلاخ ثارت حفيظة لتؤكد إسلامها وتصحح وضعها.

تتذكر سليمة بأنها هي التي كانت تدعم صديقتها حفيظة قبل زواجها بالإيطالي. هي التي كانت تصبّرها وتدعوها لزيارة بعض الأولياء معها، والتصدق والصوم. وحتى من

رمضان جعلتْها تلتزم معها فيه بالصيام. لكن هذا التجلد وهذا الصبر وهذا التعبد كان يوم كانت سليمة مستقرة في عملها، محافظة على تماسك شخصيتها وعلى توازنها. انهار التوازن، وكم من لبنة قد تكون في انهيار دون شعور صاحبتها، وستنهار معه منظومة قيمها وجدار وبنيان هذه اللبنات.

قبّح الله الفقر. فعلا. هكذا جعلت السبب العميق لهذا الاندحار الذي تشعر به عند مثيلاتها وفي دواخلها. تراه في صفحات وجوه كثير عبْر شوارع المدينة. تراه متشعِّبا بين دروب حي القصبة حيث مقر سكناها المتواضع. تراه في العنف اللفظي والسلوكي الذي تستنج معه أن الحاجة والخصاص هما مصدر المشاكل والسرقات والتسول وما جاور الانهيار سقوطا. لا ينفعها زفير ولا شهيق. تحمّر عيناها فلا تجد مفرًّا من جحيم هذا الواقع.

حفيظة، صديقة عزيزة على سليمة. كانت ترسل لها الهدايا والمساعدات. أصبحت مثار إعجاب وتقدير سليمة. كما هي سليمة بالنسبة لحفيظة، رمز الفتاة المغربية الأبية التي لا ترضى بذل في علاقة، فلا تنحني لأجل كمشة نقود، رغم أنها المتحررة في حياتها. لا زال المجتمع لا يميز بين أصناف النساء، وربما يُسقِط أشنع النعوت بكليهما. كل هؤلاء الجالسون في المقاهي الذكورية، الممارسون لعمليات استمناء بصرية، كلّهم يملكون أحكام قيمة ناقصة تجاه المرأة:

ـ هذا رأيي فيهم.

هكذا عبّرت يوما ما. هكذا قرأت الأعين التي تتموّج مع تضاريس جسدها أو مع حركات فتيات ونساء مارّات أمامها وأمامهم. استحضرت سليمة صديقتها حفيظة التي شاركتها مثل هذه النقاشات. وحين فكرت في الوافد الجديد على المغرب، مارسيل ضيف أسرة سي علي، قررت ما يوافق شخصيتها المألوفة:

ـ سأكون واضحة معه هذا المساء، لن أتجاوز حدود التعارف الذي بنيناه.

هي دائما هكذا. سليمة. يمكن أن تبقى بدون أكل ليومين إلا بسد الرمق، على أن تتنازل لمدّ يدها لمن لا يحترمها ولا يقدرها. وكم منهم في واقع معيشها أصبحت نقطة ضعفه هي

سليمة، لمّا أراد الاستعلاء والاستبداد بنقوده حيث همّشته وألغت التواصل معه. أنفة بدوية، تعلمتها في طفولتها وصغرها وتربية والدها لها، هي حاضرة معها هنا بمدينة المحمدية، خالقة الإعجاب بشخصيتها من طرف معارفها المحيطين بها، أكانوا رجالا أم نساء. مرة، صفعت صديقة لها أهانتها بدعوتها لسمر خليجي شبه حيواني، حينما وضّحت لها ما يجب أن تقوم به إن هي قبلت الدعوة لهذا السمر. قامت القيامة، وتبين لمن يعرفهما مناعة سليمة ورفضها للذل والإهانة، ولو كان الإغراء بالملايين. هكذا هي، تعاملت بلطف مع مارسيل، في لقاء عشاء وسهر. لكن، كأي تعامل، هناك حدود شخصية لا تخترق إلا بالاغتصاب المادي والمعنوي. وهذا بعيد الاحتمال ما دامت تحتاط من كل علاقة جديدة. طيب، ماذا سيقع في المساء؟ سؤالها الذي جعلها تفكّر في مضمون جوابه العملي.

فعلا، تهيأت للذهاب، التقت بمارسيل. كانت هي المبادرة للحوار والكلام. استحسنت وشكرت مارسيل على ليلة أمس. ميزته، بتهييء، عن باقي الرجال الذين لايرون في مقابلة امرأة إلا هدفا إفرازيا جنسيا. شكرته واستسمحت منه في الانصراف بعد ساعة من لقائهما.

ـ ألا ترغبين في الانضمام إليّ في وجبة عشاء هذه الليلة؟

ـ في الحقيقة أود ذلك. لكن، اعذرني، فأنا لا استطيع الالتقاء بك مرة أخرى لأسبابي الخاصة.

ـ أوكي، كما تشائين. لا أريد أن أزعجك. تمنيت لو كنت برفقتي هذه الأيام.

ـ لا أستطيع، عندي التزامات تشغلني.

ـ يمكن أن أتصل بك فيما بعد؟

ـ ممكن، لكن بصراحة، لا تنتظر مني موعدا للقاء.

ـ أيمكنني أن أعلم لماذا؟

ـ بصراحة، كم من الفتيات تتمنين لقاء أوربي ورفقته والزواج به. ربما لأجل الحصول على أوراق إقامة وما شابه. أنا لا أتفق معهن لأنني لا أستطيع الزواج بغير مسلم. أنا متحررة فعلا، كم من أمر أقوم به ليس من الدين في شيء. ولكن كم من مسألة لا أستطيع مخالفتها: صوم رمضان مثلا، الزواج بغير مسلم. هذه نفسيتي وعقليتي. هكذا، وهذا عيبي، فرص كثيرة أتيحت لي، لكن تعنتي ورفضي جعلني أختار وأبقى في وضعي الذي أنا عليه. وأحمد الله على كل حال.

ـ سليمة، في الحقيقة لم أقصد أن أفجر فيك هذه الشجون والأحاسيس، الأليمة ربما. لا أعلم. لكن كُونِي على يقيين بأنني أحترم مواقفك، ومبادئك. رغم أنني غريب عن ثقافتكم، ألاحظ أن غموضا كبيرا يلف فهمي، فلا أستطيع متابعة الفهم الجيد. على العموم، أنا كذلك سأعود غدا إلى القرية للقاء سي علي. سيأتي يوسف غدا بالسيارة. ربما وجبة الغداء هناك.

ـ طيب أعتذر، وإلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء سليمة، اعتني بنفسك.

درب العزلة

انفرد مارسيل بتجواله، مع الحفاظ على ابتسامة حضارية واجبة لبلد الاستقبال وأهله في هذه المدينة. حتى الهرة التي ارتبكت أمامه فوق إحدى الممرات الرصيفية للفيلات الخلفية لكورنيش شاطىء المحمدية ومقاهيها، بادلها سلاما بالفرنسية وابتسامة لطيفة هدأت من روعها، فاختارت سبيل انسحابها هاربة بهدوء بعد جحوظ في عينيها. تذكر يوم كان لرفيقته التي انعزلت عن الحياة الاجتماعية هرة. كانت تسميها سيمون، اعتزازا باسم سيمون دوبفوار. لم تكن هيلين ليمر يوم دون أن تحاور القطة كأنها تحاور سيمون في كتاباتها التي بقيت راسخة بعض تفاصيلها في ذهنها. وفي كل مرة كان الحديث الثنائي بين هيلين وهرتها يجر مارسيل لكي يكون ممتحَنا في ما سبق أن قرآه معا من كتب ومجلات ومقالات. مرت تلك الأيام التي كان الكتاب فيها معشوقا. زحف المرئي والإلكتروني ودمر خصوصيات الحياة الفردية. الدروس الحرة التي كان يتلقاها على يد كبار الفلاسفة في الساحات والمقاهي العمومية المخصصة لذلك. تنقله خلال نهاية الأسبوع في الغالب لباريس لمتابعة كبار المتمردين على المؤسسات الرسمية، كل هذا كان يشفي غليله من الجهل، ومن استغلال رجال السياسة والطبقات المرتبطة بها لمصالح الوطن والدولة. جيل دولوز، سارتر، والقائمة طويلة لمعلميه في كيفية التفلسف والعيش بسعادة في الحياة. (إنّ "المفكّرين الأحرار"، هم، بوجه ما، يعارضون "الأساتذة العموميين". حتى السوربون تحتاج إلى سوربون مضادّة. وإنّ الطلبة لا يستمعون جيّدا إلى أساتذتهم إلاّ حين يكون لهم أيضا معلّمون آخرون).

هكذا كان يتفكر ما قرأه لدولوز، آخر من بقي معشوقَه في القراءة إلى حين مغادرة هيلين عالمهما الزوجي.

ما لِحضور هذه الافكار في هذا الجو والمناخ الصيفي الحار الآن؟ جلوسه بجوار جماعة شبان طلبة، حديثهم باللغة الفرنسية عن مواضيع حداثية معاصرة. اغتراب أفكارهم عن ما يجري في الساحة. وما الذي يجري في الساحة؟

موسم احتفالي هذا في حديقة العمالة التي تسهر على بقائها كفضاء ومجال أخضر، شركة النفط التي تلوث المدينة والمنطقة بأخطر الغازات، كما تهدد بانفجارات معلقة إلى حين. هكذا شُرِح له الأمر من طرف مجموعة الطلبة هذه، والتي هي في اصطياف كذلك. جلس مارسيل بإحدى المقاهي الجميلة وجاور جمع الشباب الطلابي هذا. غامر مع خطابهم الحماسي دون أن يورط نفسه في هموم المواضيع، فهو لا يملك حلولا لما يمكن طرحه من مشاكل وغيرها. حاور نفسه كأنه يجيبهم عن أسئلتهم دون أن يعلموا ما يجري في ذهنه. كان المشترَكَ هو اللغة الفرنسية التي يتحاورون بها، لغته الأم.

انشرح لرؤية كنيسة قائمة نظيفة، متعايشة في سكون مع أهل المدينة وزوارها، والذين هم منشغلون عنها وحتى عن صومعتهم الآن باحتفالات الصيف الرائعة هنا ومهرجاناتها. أحصنة صغيرة قزمية من نوع بوني. حركات سيميائية لبهلوانات متفقرة تجذب فضول المارة بين ممرات الحديقة. أَ تِمثال جامد هذا أم إنس؟ حتى إذا ما فاجأته الحركة الأوتوماتيكية والآلية، استنتج وأجاب داخل لعبة ذهنية بسيطة تدمج الفرد داخل المجموعة في هذه الحديقة الجميلة.

إيقاعات كناوة والدقة المراكشية تبعث الرغبة في الرقص. ساحرة في امتدادها ولونها وجذورها الإفريقية المغربية. يجول أفرادها بآلاتهم وتطبيلهم وحركاتهم بين أركان الحديقة، ترافقهم جماعات شبابية وبعض الأطفال متسلين بمحاكاتهم وتقاسم طربهم ورقصهم. حتى إن مارسيل أطرب سمعه بالإيقاعات وبدأ يطرق أصابعه مع جانب الطاولة. ربما هدهد ودغدغ أطرافه وجسمه كذلك. هذا هو الصيف الجميل. نغمات حب ورومانسيات ساحات باريس وليون تذوب أمام هذه الشاعرية التي تشرح النفس داخل المكان مع هذا الأنام.

في لحظة ما، رأى فتاة تشبه سليمة، ظنها هي. همَّ بالنهوض لملاقاتها، لكنه تدارك الأمر واستنتج أنها غيرها وليست هي، تشبهها في القامة واللباس فقط. راجع حواره معها، بدأ يشعر باهتمامه بأفكار سليمة ومحاولة فهم ترددداتها وانسحابها. أعجبه فيها ما انصرفت وذهبت به ولم يكتشفه فيها ومعها. دائما هناك سر تحمله معها المرأة ويجعل فضول معرفته يشد الرجل إليها. ما هو هذا الشيء الذي حملته معها؟ لم يدركه بعد بعقله. ربما الآتي سيبين ذلك.

للغد، وجده رنين الهاتف قد انتهى من استحمامه وحلق ذقنه. كان لقاؤه بيوسف بمقهى مجاور للإقامة. وقد كان يوسف على عجلة من الأمر. أراد من مارسيل مرافقته لقضاء بعض الأغراض فاستعجله في التهيؤ لمرافقته.

ـ ما الجديد يا يوسف؟

ـ الجديد يا مارسيل أنني دخلت القفص الذهبي. خطوبة قريبة.

ـ صحيح؟ هذا مفاجىء. ألف مبروك.

ـ بارك الله فيك. وأنت ما الجديد؟ أعجبك المغرب؟

ـ أعجبني كثيرا. وخصوصا هذه المدينة وسكانها وزوارها مثلي. التقيت فتاة وتناولنا كأس قهوة ووجبة عشاء. الجميل أن الأمر انتهى بسرعة. لم ترد تجديد اللقاء. وكذلك لم تكن بيننا علاقة. احترمت موقفها في اعتذارها عن ملاقاتي من جديد. ما فهمت هو أنها لا تستطيع إقامة علاقة مع غير مسلم. لا أفهم. كنت أنتظر مجيئك لكي تفسر لي ما يجري، فأنت مفتاح عقلي لفهم ثقافة جديدة على ذهني.

ـ طيب. تريد معرفة حكم الإسلام في المسألة. هي خصوصية دينية عليك أن تتفهمها. والدين لا يفرضها على أحد بالقوة وكلٌّ يمارسها بحريته. الإسلام يمنع المرأة من الزواج بغير مسلم لأن المرأة أصلا تكون في طاعة أوامر زوجها تابعة لتعاليم تربيته لأولاده. وإذا كان الزوج غير مسلم، مسيحيا مثلا، فأولادها سيصبحون مسيحيين تابعين لأبيهم. وكل دين يريد نشر تعاليمه طبعا داخل مؤسسة الأسرة والعائلة أولا. إذا الإسلام لن يسمح

بتشجيع دين آخر وهو يقول بأنه الدين الصحيح وخاتم الرسلات. لكن إذا كان الزوج مسلما وأراد الزواج بكتابية أي مسيحية أو يهودية، يسمح له بذلك، مادام الأمر يحمي تربية الأولاد تربية إسلامية بحكم تبعيتهم في المسؤولية لأبيهم. وهذا في صالح الإسلام ونشر دعوته طبعا.

ـ الأمر مغلق إذا. لم لا يسمح بالتزاوج بين جميع الأديان والمعتقدات؟ هكذا سيتعرف كل واحد على الآخر.

ـ هذه أمور قائمة منذ أربعة عشر قرنا، منذ ظهور الإسلام ولا يمكن تغييرها بسهولة. لكن الناس أخذت تتحايل وتتلاعب بها الآن. قلّ الإيمان الحقيقي والاحترام الصادق للقيم الإسلامية. الناس تبحث عن المادة والنفعية في وقتنا الحالي.

ـ تريد أن تقول بأن المسلمين أصبحوا أكثر ميلا للماديات؟

ـ نعم، لكن ليس الكل.

أجاب مارسيل نفسه داخليا: (طبعا ليس الكل. لو كان الكل ماديا لقبلت سليمة مرافقتي ودعوتي لها لعشاء آخر. وربما إقامة علاقة معي. لا زال هناك أصحاب مبادىء).

ـ اسمح لي يا يوسف، أتساءل إن كان مشكل الدين قائما في اختيار الطرف الذي ستتزوج به؟ ماذا لو أردت الزواج بمغربية؟

ـ في الحقيقة، نعم. أنا مبدئيا لا أرفض الزواج من غير مسلمة. لكنني أرى المسألة كما قلت لك قبل قليل من زاوية توافق بيتي منزلي، ومن زاوية تربية الأولاد. مهما شرحت لك، تبقى الأمور غامضة بعض الشيء. لكن، أرى أن غرس قيم الإيمان والدين وبعض خصوصيات ثقافتنا الأسرية والاجتماعية المغربية قد يصعب عليّ تحقيقه مع زوجة غير مسلمة، غير مغربية. لهذا، اختياري فردي، شخصي فقط، لا أجعله قطعيا ولا إطلاقيا فأسقطه على الآخرين. ربما هناك من ينجح في المسألة.

ـ سأحاول فهمك، أكيد يا يوسف. على العموم، مبروك عليك الزواج الجديد.

- بارك الله فيك.

بقي يوسف مستكينا مع نفسه مركزا سمعه مع صوت محرك السيارة. عيناه على خط الطريق المتصل حينا والمنقطع حينا آخر. ذهنه مع خيوط فكرية حياتية ماضية حاضرة.

لقد جرب يوسف حياة الإنسان الغربي. رغم ذلك كانت حيطته في أخذ مسافات ذهنية بينه وبين الاندماج الكلي داخل ثقافة المجتمعات الأوربية. يفسرها تكوينه الطفولي، حضانة العائلة الوجدانية، الهوية الإسلامية المغربية... كل هذه الأمور تشكلت كوعي مع تجارب يوسف الحياتية، ودراساته المتنوعة. هذه المسافات جعلت تجاربه العاطفية في انتظار تطابقها وترقب توازناتها في حياته الاجتماعية، ومكوناته الثقافية. لهذا، لما فكر في الزواج، فكر في شِقَّي شخصيته وطرفيها المغربي والأوربي. موضوعيا وواقعيا يعيش أوربيا، ثقافيا وتربويا تجتره هويته المغربية والإسلامية.

ويبقى اختيار الطرف الثاني في الحياة الزوجية أعقد أمر يفكر فيه العقل. لكن، إذا ترك للعقل أن يحقق منطقه المجرد، فربما لن يكون هناك زواج أبدا. هكذا اعتبر الأمر. وكم من فرصة زواج أتيحت ورفضها العقل، لكن عوره ندم عليها كما إحساسه ونفسه.

تتراكم هذه الأمور. قد تكون بسيطة في بدايتها، لكنها سرعان ما تتحول إلى معمّرة في البنية النفسية والشعورية، متجذرة ومقيمة بشكل دائم داخل شخصية الإنسان. وهكذا تتركب العُقد وطبقات الإحساس والشعور.

هكذا كان موضوع زواجه من (هدى)، مدبرا في ذهنه، في بعض تواصلاته، في بعض تشاوراته المباشرة وغير المباشرة. كل هذه الأمور حاول شرحها لضيفه مارسيل خلال الطريق إلى القرية، لكن بطريقة تجعل عدم الاصطدام بين الأفكار في التواصل والحوار بينهما.

- **يبقى اختياري نسبيا دائما. لكنه عن قناعة داخلية. كانت بيني وبين هدى لقاءات سابقة خلال سنوات مضت. تقريبا ثلاث سنوات. احتاج لتتمة دراستها ونبيل**

ديبلومها. تبادلنا وتقاربنا في مجموعة من الأمور، وخصوصا ما يجعل الارتياح لقرار الزواج. أظن، أن الخطوات المقبلة ستقوي الروابط بيننا.

- **المهم يا يوسف أن تكون مرتاح لقرارك الشخصية الزوجة أساسا.**
- **الحمد لله.**

صراع قيم

اختلط الواقع مع المبادئ في تناقض واصطدام، وتفجر البكاء فانهمر دموعا، سيل حمم بركانية في غليان، تلك دواخل سليمة وهي في حسرات وتفريغ على صديقتها سعاد. لوم سعاد على خط سليمة في التفكير يكون دائم الضغط وخالقا للتردد والندم في بعض الأحيان. لم يكن لقاؤها مع مارسيل إلا النقطة التي أفاضت الكأس في مواقف سليمة وتعاملها مع الآخرين.

ـ لا أستطيع. أعلم أنني أضيّع الفرص في حياتي. ولكن أنا هكذا. إذا اضطرني الأمر، سأعود إلى القرية وأحمد الله وأعيش بكسرة خبز وشاي.

ـ يا حمقاء، هذا الكلام تقادم عليه الزمن لم يعد صالحا اليوم. انسَيْ هذه الحماقات. ربي يأتي لك بالرزق حتى لعندك وأنت تضيعينه. ابقَيْ مع أفكارك الشقية. أنا أعرفك جيدا. علاقتك مع ذلك المثقف والمعتقل الذي خرج من السجن هي التي أثرت فيك بهذا الشكل. اللوم على تلك الصديقة التي كانت معك في معمل النسيج وأخذتك يوما لزيارة أخيها.

ـ يجب أن تعلمي بأن عمر هو الشخص الذي حولني إلى إنسانة. كنت أجهل دواخلي، أهب جسدي لكل مبتسم، ظنا مني أنني أمتلك سلاح التغلب على الآخر والتأثير فيه بما أريد. لقد جعلني أعي كرامة الأنا الإنسانة التي فيّ أنا. لقد اكتشفت كنزا ثمينا وجديدا معه، لا علاقة له بدولار ولا بدرهم. لقد أصبحت أعتز بسليمة التي تسكنني، لم أعد ذلك الجسد الذي يراه الناس متعة فقط. عقلي وكرامتي قبل رغباتي. لذلك تجدينني أقبل دعوة عمومية في مكان عمومي، وأرفض الخلوة مع أي كان.

لقد رفض عمر لمسي لأنه أرادني أن أكون حرة غير مقيدة بسجين. وعندما خرج من السجن، صارحني بأنه لن يبقى في المغرب، يفكر في السفر إلى إسبانيا. نال ديبلومه،

ووجد جمعية تكفلت بتسجيله في جامعة بمدريد لإكمال دراسته هناك. كنت أنا من قبل بعلاقة معه دون قيد يلزمه بالبقاء.

ـ عمر جعلني أتوافق مع كل شيء، دون أن أصطدم بأي شيء. حينما كان عمر وراء القضبان، وراء قضبان الحديد التي يطل من إطار نافذتها الصغير وسط الباب، كان يتساءل: ـ من أصارع أنا في زنزانتي؟ لا يسأل سوى نفسه، لا يجيب سوى نفسه: ـ من عدوي؟ لا عدو له أمامه يعاينه. حينما خرج من السجن، قال: ـ هؤلاء الناس الذين دافعت عنهم، عن كرامتهم وحريتهم وحقوقهم وعقولهم، لم يعرفوني، لم يكونوا في انتظاري. لما رأوا لباسي في الشارع، كإنسان عادي، أهملوني، لما علموا أنني معتقل سابق اشمأزوا من الخبر واستصغروني.

أكبر الطعنات التي تلقيتها في حياتي من الذين ضحيت من أجلهم بإخلاص. حين أرى تلهفهم أمام أبواب الأعيان وعتباتهم، هؤلاء الذين هم سبب محن هذه البلاد، هم ناهبو ثرواتها ومستغلي أقوامها، حينما أراهم يصلون إلى حد التقديس لهم، أعاتب نفسي: ألأجلهم سجنت واعتقلت؟ ورفاق الدرب الذين شاركت ورفعت راية النضال معهم، أسقطوها أرضا، مرّغوها ترابا، صافحوا من كان سببا في كل محننا. تلومني نفسي: أبله أنت في شقاوتك. أقاوم عتاب النفس، وأشفق عليها.

لا تنسيْ، لا تنسيْ منطقي وعقلي، أنا مقتنع بنضالي وسجني واعتقالي. سلبتُك الحرية أيها النفس، نعم. لكنني كنت حرا في كرامتي واعتزازي، شامخا داخل الزنزانة. وها أنذا في الشارع العام، أوداجي وأنفاسي تختنق بقيود تطبخ مناخ العيش حيث لا حقوق ولا عدل ولا مساواة ولا كرامة. حينما أرى رجل أمن يبتز مواطنا يقتات في تجارة، ألاحظ هرم الاحتلاب الكبير الذي يمارسه المدبجون بالأوسمة والدرجات. حينما أرى شيخا كبيرا مشردا، في برد قارس يفرش كارتونا على درج بنك كبير مقفول، للكبار، أرباحه للكبار فقط، وينام بجانبه طفل صغير، بدفء جسده، بتداخل رجليه مع رأس طفل رفيق له، بتغييب وعيه بسموم سيليسيون يشُمّه، يدمر خلاياه وتنفسه، يصبح

كيانا هيروشيميا محروقا بقنبلة نووية تروومانية، ومستقبل الهلاك الذي ينتظر أجيال الغد، بين الشيخ الكبير المشرد والطفل المكهرب بشم السموم الخطيرة، أقول:

ـ لا حاضر نعيشه ما دام الماضي وعيا شقيا، والمستقبل نبوءة فاسدة.

لم يعد عدوي صلاة المواطن، لم يعد الأفيون معتقد ديني، لا عداوة لي، لا خوف لي، لا طمع عندي في الدنيا ولا في الآخرة. جربت الاعتقال لأجل الحرية والكرامة. مات الخوف هناك، مات الطمع هناك، مات الأفيون هناك ! فقط عيش كريم، حرية وكرامة للجميع.

وتعود سليمة لتقريب صديقتها سعاد من حقيقة وجدانها ومشاعرها وفهمها وعلاقتها:

ـ أتعلمين يا سعاد، أصبحت أمتلك كلامه، أنطق به، أعي مضمونه، كأنه صادر مني. عمر يسكنني. فراقه يقتلني. كان يريد الخروج من البلاد، لأنه كان يموت خلية خلية بداخلها، بسبب ما يلاحظه عقله ووعيه. يقول: ـ تحرقني الغابة بداخلها يوميا، وتُجدد احتراقي. كل يوم مثل حطب شجرة، ينزل عموديا على قامتي، يشعل فتيله من أسفل حتى يصل لهيبه إلى رأسي فيفجرني ويعدمني، فلا أستسلم. أتذكر النار التي كانت بردا وسلاما على النبي إبراهيم. هذه النار باردة تحرق في خفاء أكثر من اللهيب. سأخرج خارج الغابة إلى ساحل وبحر، إلى غابة أخرى علّني أكون حطبا احتياطيا وليس رسميا لمدفئة رجال الغابة الأثرياء. صدقت الأغنية الشعبية: رجال الغابة كلهم كذابة !

ـ عمر، هو أنا. تجربة حبنا جعلتني أقرأ معه الأشعار والأفكار والمواقف والهواجس. لما رحل، احتفظت بهذا الكنز لدواخلي، قلت: كُوني عادية مع الناس والمجتمع، واحتفظي بهذا الشقاء العذب لنفسك في ذكرى من أحببته بقوة. تمردي يا سليمة، اصرخي، ابكي، انعزلي، اثملي، دمري الأشباح. هذا ما أقوم به في سراب وراء سراب. لا أدري ما هذا العبث، أَشِفَاءٌ هو أم شقاء؟ لكنني أعيش به دائما.

ـ لا استطيع فهمك، ستُعْديني بأفكارك يا سليمة، وأنا لست بقوة تحملها. تبدين عادية، لكنك تخبئين ما لو كنتُ سُلطة سجنتُك بسببه. أُتركيني في طبيعتي من فضلك. أنا أكبر ضحية لهذا الشعب. أتريدينني أن أنفجر أنا كذلك. أنتما تحبان شعبا وتدافعان عنه، وعمر وهب حريته سجنا لأجله. ها هو قد فرّق بينكما، أحرق حبكما. أين هو عمر الآن؟ لا يستطيع البقاء وسط شعب جهله، نكره، سخر منه ومن تضحيته. أنا كذلك ضحية ما مضى وما أنا فيه. أو لم يكف هذا الشعب أنه دمر شرفي: اغتصاب واستغلال واحتقار وطرد ونكران؟ ألم أجعل أملا في ابتسامة صاحب المعمل لأجل العمل؟ ألم أحلم حينما قال لي: أنت أجمل امرأة التقيتها؟ قلت، كل القيود يهون تجاوزها، ما دام هذا التصريح أَلَّهَني كامرأة. ارتميتُ في أحضانه، واكتويت بهجرانه. وبعد سنتين، عمل على طردي من المعمل، بتلبيس وتلفيق تهمة واهية ضدي، إما، وإما. أي شعب هذا الذي تعلّمتِ من عمر حبه والعيش فيه؟ أليس هو الذي يستقبلني في الصباح امرأة بجسد وشهوة، وفي المساء بنظام استغلال عبودي بالضرب والنهر والوساطة. وما أوْسِمتي إلا ألقاب ساقطة وأعراض ملطخة.

هذه أنا وأنت يا سليمة. لهذا نحن صديقتان، لأجل مقاومة هذه المرارات التي تصهرنا في مبيد سائل ونفس معذبة داخل جفنته. ما ضمانة مستقبلنا يا سليمة؟ إذا لم نبحث عن مال وعن جمعه؟ كم سيدوم دعم عمر لك مما يبعثه لك من نقود؟ أُنظري إلى "عيشة المشة"، ها هي تفرش الأرض، وتهب الجنس في الظلام لكل عابر مفترس، مثل هرة مشردة ! انكمش وجهها، ضعفت بنيتها، تتآكلها أمراض متنوعة. كانت أجمل امرأة. وهبت كل شيء، لكن الإدمان جعلها تفقد كل شيء. لا مأوى، لا رصيد. فقط تشريد وتشريد.

هذا هو الشعب. لا أريد أن أكون مثلها، وقلبي الآن يتقطع خوفا من هذا المصير. فلو تعاطفت مع هذا الشعب الذي يدمرني كل يوم، سيذيبني كما تذاب قطرات شمعة حتى لا يبقى منها ولا من نصاعتها ولا من فتيلها، ولا من نورها شيء، وستنسى

وتستبدل. لن أرغب في العيش لو تعاطفت. كم من مرة نظرت إلى السماء لطلب شيء واحد: السماح لي بالانتحار.

ها نحن ننتحر يا سليمة بجرعات ودخان، ننتحر!

لهذا سأبحث عن عيش داخل هذا الانتحار. أيعجبك جنوني هذا؟ فكّري في مستقبل مضمون، انظري إلى ما يؤمّن لك سنوات ضاعت، وسنوات ستشيخين فيها. لا يكفي النساء ضمان الذهب الذي تتلهفن على شرائه. تمُتْن ويذهب الذهب إلى آخرين.

وجبة الكسكس

بعد وجبة الكسكس، جلس علي مع ضيفه مارسيل وأخيه إبراهيم ويوسف وابن إبراهيم محمد. صينية شاي منعنع، وتجاذب أطراف حديث. مباركة متكررة لخطوبة يوسف وابتسامات مستمرة. تَوجه علي لضيفه مارسيل بالسؤال:

ـ هل أعجبتك المحمدية يا مارسيل؟

ـ أكيد أعجبتني. المغرب بلد جميل فيه كل مقومات الحياة الجميلة.

ـ الحمد لله، أتمنى أن يستمر إعجابك ببلادنا.

توجه إبراهيم لمارسيل بسؤاله هو الآخر:

ـ ألم تأت معك العائلة؟

ـ لا.

ثم استدرك علي بالاضافة:

ـ مارسيل مطلق يعيش بمفرده، وهو جارنا وصديقنا. أتمنى أن يخرج من وحدته ويتزوج طبعا. رغم أنه يجد صعوبة في ذلك.

أضاف إبراهيم سؤالا جديدا:

ـ لم لا يتزوج من المغرب؟

كان سي علي هو المستدرك بالجواب:

ـ ممكن، لكن الزواج من المغرب يحتاج إلى أن يصبح مسلما.

ـ مارسيل، هل تحب أن تصبح مسلما؟ توجّه يوسف إليه بهذا السؤال.

ـ في الحقيقة، مادمت معكم فأنا مسلم، أنتم هم الإسلام. إنني أتعامل معكم وأجد فيكم طيبوبة وحسن معاملة وضيافة. وهذا يكفيني في الحياة.

ـ الإسلام خمسة أركان يا مارسيل. عقّب علي.

ـ وماهي يا عزيزي علي؟

ـ الشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، الصلاة، الصوم، الزكاة، والحج.

سأله مارسيل مازحا: ـ ألا يكفي واحد منها بدل خمسة؟

ضحك الجميع وابتسم لخفة دم مارسيل. علق إبراهيم:

ـ يمكنك الإدلاء بالشهادة والزواج وانتهى الأمر. الكل يفعل هذا.

لكن علي أسرع في الرد معلقا:

ـ أخي إبراهيم لا تنسَ أن الإسلام الحقيقي هو هذه الأركان مجتمعة.

ـ يا علي، الكل أصبح يتلاعب بالدين، الكل يبحث عن مسلك في الحياة ولا يهتم بالأركان.

ـ إذا كان الكل يتلاعب، فليس من حقنا أن نتلاعب، نحن أرباب أسر مسلمة، مسؤولون على إعطاء قدوة ونموذج لديننا يشرف الجميع يا إبراهيم.

كان كلام علي سهما باردا، لم يفهم منه مارسيل مقصده. يوسف ومحمد، ربما. كلاهما يعلم العلاقة بين الأخوين: بين الأب والعم.

لم يكن إبراهيم ليستقر في حياته لولا وجود أخيه علي بفرنسا. يعلم جيدا أن الحقل الصغير جدا الذي ورثاه لم يكن ليكفي لمدة ربع سنة في العيش، لولا ما وفره علي وبعثه أو أتى به من فرنسا. أصبحت أرضا شاسعة، بعدما اشترى بعض الهكتارات من جيرانه الذين هاجروا إلى الدار البيضاء لأجل التجارة. زاد حفر البئر في قيمة الفلاحة التي استثمرها علي مع أخيه ابراهيم، والمنزل الذي بني لكل واحد منهما بنفس الأوصاف والتجهيزات، حتى ما أتى به علي من فرنسا كأثاث وتجهيز، لم يكن لينسى فيه عدل مقاسمة النعمة مع أخيه لولا ميل إبراهيم ليصبح ماديا في تفكيره، طامعا أكثر. يوم جاء علي من فرنسا فوجد وجه إبراهيم متغيرا. بفعل ماذا؟

ـ ما المشكل؟ ما درجة هذا الحزن الذي يغيم على الجميع؟ لماذا هذه النزاعات مع الزوجة والابن البكر؟ أسئلة كثيرة رافقت الأيام التي أراد فيها إبراهيم من أخيه علي مقاسمة كل شيء ربما. الأولاد كبروا، وبنتاه قد بدأت تطرق أبواب خطوبتهما. يريد كتابة وتمليك المنزل وبعض الهكتارات. في تلك العطلة الصيفية، لم يمكث علي بالقرية سوى أربعة أيام. اتضح له فيها المراد. لكن ما لم يعجبه هو إسقاط الهم

والحزن ونقص الترحاب مع التحضير لهذا الطلب. تركه علي بالقرية، وتوجه إلى الإقامة بالمحمدية. بين واجب الأخوة وضمان مستقبل أسرة أخيه إبراهيم، والبحث عن حل مناسب، ما العمل؟ "الأخوة حدّها هو الدنيا" كما نقول.

كان استقراره الإيماني، ويقينه بالله في أن كل شيء يقع فهو مكتوب من عند الله وفيه الخير أكثر من أي شيء آخر. جعل المنزل الذي يسكنه إبراهيم ملكا لهذا الأخير، وكتب عقدا ببعض الهكتارات، ستة من ستة عشر، مع بقاء الاستغلال للبئر مشتركا. لم يكن ليفكر في أنانيات التملك. كم من عمل خير قام به مع سكان القرية، فلماذا لا يكون هذا مضافا مع أخيه إبراهيم. حتى المسجد ساهم في بنائه، ولم يعلم الناس على أنه من اشترى الحصير والزرابي والثريا التي تزين بهوه. أراد المسألة مستورة لينال الأجر عند الله تعالى. ما لم يعجبه، هو طمع إبراهيم في أشياء أخرى. تبين الميل المادي الذي أصبح في علاقة إبراهيم مع أخيه علي، تحت ضغط الأسرة المساندة طبعا، وتقلبات مزاجه. السنة الموالية، لم يدخل علي إلى المغرب. جاء يوسف فقط. لم يفكر ولم يسأل عن محصولٍ ولا أي شيء. ترك الأمور لقدر المستقبل. كان تقديس صلة الرحم، ورابطة الأخوة التي تجمع الطرفين، وعلاقة علي بالقرية وإمامها الذي خفف من انتقاده الهادئ لأخيه إبراهيم. فحتى مع زوجته فاطمة، كان يجعل المسألة صغيرة في حجمها كمشكلة، مترفعا عن أي سقوط في نزاع حول ما هو مادي.

وها هو إبراهيم من جديد، أصبح يتكلم بمنطقه المادي حتى فيما يخص الدِّين ورابطة الزواج المقدسة في الإسلام. لذلك جاء كلام علي سهما باردا، لكنه كان طارقا ومنبها إبراهيم إلى الحد من منطلقاته المادية في التحليل والحذر من المساس بالقيم التي تبني الأخوة والتضحية فيها. يعلم أن إبراهيم يستطيع أن يزوج إحدى بنتيه لغير مسلم، ولو كانت شهادة مزورة بالدخول في الإسلام، الأمر الذي يرفضه علي بتاتا. نعم، يمكن أن نشجع على الدخول في الإسلام عن طريق الزواج الذي يجعل غير المسلم مسلما، لكن أن يكون الأمر تلاعبا، تمثيلا يشارك فيه الجميع، أن

تضرب القيم والعقيدة والنية عرض الحائط، أن يتآمر الجميع على الشرع وعلى الشهادة، والله تعالى لا يخفى عليه شيء مما يقع، فهذه مسألة مرفوضة طبعا.

كان شكر مارسيل على استضافته متجددا. وكان الشكر على وجبة الكسكس أكبر. هذه المرة وجدها بطعم خاص:

ـ تعلمون وجدت لذة جديدة في هذه القصعة. خضرها المتنوعة ومرقها اللذيذ، وكذلك لحمها الأشهى في مذاقه وتناوله. كلما اغترفت ملعقة ازدادت شهيتك للتي تليها.

ـ القصعة ميثاق عائلي واجتماعي يا مارسيل. علّق يوسف وهو يبستم في رده على مارسيل. هو ميثاق يجعل من يشترك في الطعام على وجبة مثل هذه فقد أصبح منتميا للجماعة وعهودها، ووفيا لقيمها وصادقا في التعامل معها. كما ترى، هي رمزية قوية تجمعنا عليها وجبة الكسكس، خصوصا إذا كانت داخل بلدها وباديتها.

...

ـ لنستعد لصلاة العصر في المسجد. هكذا حول علي مسار المجلس وأنظار إبراهيم.

بقي مارسيل ويوسف جالسين حول صينية الشاي، وانصرف الآخرون. استمرّا في الحديث وفي تحليل ما دار في المجلس بين أطرافه المنسحبين.

ازداد تفهم مارسيل للأمر والقضية. ازداد فهمه لرؤية جاره علي. فموقع الثقة الوجدانية التي ترسخت عنده تجاه علي، جعل احترامه التزاما لكل ما يراه علي ويقول رأيه فيه إذا كان صوابا ومنطقيا على الأقل. كم منا يحتاج إلى من يضع ثقة في كلامه فيتركه ينوب عنه في الكلام ويستريح.

ـ أنا كذلك أتفق مع أبيك علي. لكن من منظوري الخاص. لا أتصور يا يوسف مناخ نفاق ولا مجاملة سطحية يستطيع أن يعيش فيهما الإنسان. سيصبح حالة باتولوجية، ويعاني من ازدواجية الشخصية. تعلم أن مسار التحرر في بلادنا، في فرنسا على الأقل ارتبط بهذه الثورات في بناء الشخصية الإنسانية والنفسية. لو كان النفاق أساسا للعلاقات، لوجدتني وآخرين في تعامل مع الكنيسة أو غيرها، أو في انتماءات حزبية ونقابية متناقضة ومتقلبة. إنني أرفض كل هذا يوسف. لقد تحررنا من الخوف الداخلي الذي عمّر في قلوب الناس والشعوب ودمر آمالهم في صحة نفسية واجتماعية. قد أبرر وقوع المحتاج المعدوم فيه طبعا. لكنْ لِمَا رأيته في المغرب، فأنتم بلد فيه خيرات وثروات كبيرة. تحتاجون إلى تصحيح وضعكم من أجل العيش الكريم، وليس من أجل النفاق أو المجاملة.

أعجبتني شخصية أبيك وأحترمها كثيرا، كما أعجبتني صراحة الفتاة التي التقيتها بالمحمدية في تشبتها بمبادئها. لكن لن أُدلي بشهادة لكي يقال بأنني مسلم، ولكي يسمح لي بالزواج، فهذا ما لا أقبله أنا كذلك. عندي قناعاتي ومواقفي من التدين ككل، كما عندي احترام للأديان ولأصحابها. لن أكون منافقا. ولو نافقت بهذه الطريقة لنافقتكم أنتم كذلك. أرى العملية شبه إسهال فكري وأخلاقي يقع فيه الناس. فقدان مناعة ثقافية بتعبير آخر.

ـ في الحقيقة يا مارسيل، تشرفني وتعجبني أفكارك. أنت أفضل من كم شخص يدّعي أنه مسلم، وهو لا يحمل إلا الاسم. الغريب أن ما تقوله يدعو له الإسلام ويؤكد عليه كذلك. فأنت بأفكارك مسلم تقريبا. وا أسفاه على هذه المفارقات الغريبة، عقل مسلم وصاحبه ليس بمسلم، وشخص مسلم وأفكاره وأخلاقه ليست بإسلامية. وا أسفاه !

ـ إذا، عند المسلمين، هناك طرف معقول وطرف غير معقول؟

ـ أكيد، مارسيل.

ـ فهمت الآن، بدأت أرى العملة بوجهيها الآن. أشفق على الحال كما تعلم.

ـ أقترح عليك لقاءً من نوع آخر يا مارسيل. ما رأيك؟

ـ مع من يا يوسف؟

ـ مع صديق لي. هو أستاذ جامعي جمع بين الفلسفة والدين. غدا إذا شئت، سيكون اللقاء ممتعا ومفيدا.

ـ أوكي، اتفقنا. يبدو أن عملية التعرف على الإسلام أصبحت أكاديمية الآن؟

ـ ربما أكثر. علق يوسف مبتسما.

. . .

جلس الثلاثة في سطح المقهى بالشارع الكبير المؤدية طريقه إلى مدينة بوزنيقة. وكما تجمع مدينة المحمدية بين الطابع السياحي والاقتصادي المرتبط بالميناء ومحطة تكرير البترول والحركية الاقتصادية المندمجة مع محور الدار البيضاء الكبرى، كذلك هي مدينة بوزنيقة في امتدادها كمصطاف وشاطئ مغرٍ للزيارة، وفلاحة غنية ممتدة على شريط الوسط الغربي للمغرب. هكذا كانت جلسة المقهى مستحضرة عبق التاريخ والاصطياف المرتبط بتقارب المدينتين، كحنين إلى ديار يرسمها أفق الطريق المبلط المؤدي إليها.

تبادل الجمع الحديث عن المدينة والصيف وازدحام المرافق بها. قدم يوسف كل طرف للآخر. انتقل الحديث عن أوربا، وعن آخر زيارة لعبد العزيز الصافي لها. كان لقاء حول حوار الأديان، ذهب فيه عبدالعزيز ممثلا لجامعته، ما دام تخصصه هو علم الأديان المقارن. احتضنت اللقاء مدينة روما الإيطالية. تكلف في مداخلته بتبيان دور الإسلام في نهضة أوربا العلمية خلال القرن 15 و 16 م وما بعدهما. لام يوسف صديقه عبدالعزيز على عدم زيارته بسويسرا. كان العتاب لتجديد أواصر الصداقة التي تُغيّب كل واحد منهما لمدة السنة تقريبا، مادام اللقاء يتجدد في الصيف.

تحول النقاش إلى محور اللقاء، فتوجه يوسف للأستاذ عبد العزيز بالكلمة:

ـ يتساءل مارسيل باختصار عن سبب اشتراط الإسلام في زواج غير المسلم بمسلمة؟ لقد تفهّم الأمر، لكن هذه مناسبة أخرى ليرى رأي أستاذ جامعي

متخصص في الموضوع. وما دمت صديقا مقربا، كانت هذه هي المناسبة لمناقشة المسألة. ما رأيك؟

ـ طيب، الظاهرة منتشرة جدا. وأنا أرى المسألة أزمة قيم يعيشها المجتمع المغربي. من حقك يا سيد مارسيل أن ترفض المعادلة. فالإسلام ينطلق من كونه المرجعية الصحيحة في التدين، باعتبار الأسرة الدينية التي ينتمي إليها. هو يريد أن يصحح مسار هذه الأسرة. لقد أخذ الشرعية لطرحه منذ خمسة عشر قرن مضى وليس اليوم. هو عهد بين الأديان مأخوذ منذ ظهورها كالعهد بين الإخوة قبل ظهور الأحفاد والأسباط وتحول الظروف بين الأجيال. منذ 15 قرن، كانت الإنسانية في أزمة عقيدة أثرت على تاريخها في جميع المجالات، حتى أصبح الظلم يمارس باسم الدين ورجال الدين. وهنا كان ناقوس الخطر الذي أسرع في ظهور ومجيء الإسلام.

ما دام دينا للمستضعفين والفقراء والمساكين والمحرومين والمظلومين ومهضومي الحقوق، فرادى وجماعات، فقد أخذ الشرعية في خطابه، مثلما تأخذها الاتجاهات الماركسية على مسار القرن العشرين وما بعده. ولا تنس أن الماركسية كسبت شرعيتها الواعية داخل الدول الأوربية التي عرفت المسيحية والرأسمالية بعد مرحلة الإقطاع. ما عداها تجارب متباينة مع الواقع سواء في آسيا أو داخل الدول الإسلامية.

يأخذ خطاب السيد عبدالعزيز الصافي درجة هدوء في التحليل مرتبطة بهيئته المتوسطة القامة وغير النحيفة ولا الغليظة. حركات يدين بطيئتين في الإشارة والتعبير مع الكلام، لحية رقيقة على جنبات خديه وذقنه. ابتسامة خفيفة مرافقة في رؤيته لمتكلّمه. كذلك لباسه العصري البسيط في تناسقه واختياره، جاكيت صيفية وقميص بُنّي مفتوح. يغريك في كلامه أكثر، ما دام لا يبحث عن إثارة موضة عصرية مواكبة لآخر الصيحات من المحلات التجارية للملابس الكبرى مثلما نراه عند مجموعة من الرجال والشباب. وطبعا، لم يكن مارسيل

ليهتم بهذه الجزئيات ما دام هو الآخر بعيد عن مواكبة شبابية للباس، ربما بحكم المرحلة العمرية، وربما بحكم بساطة فلسفته في ارتداء الملابس.

بين كل هذه الملاحظات تكلم مارسيل مستفسرا:

ـ لماذا ميزت بين الغرب والآخرين في موضوع الماركسية؟ أريد أن أفهم...

ـ الماركسية نتاج صراع المتناقضات، صحيح؟ إذا، هي نتاج وردّ فعل على واقع ديني واجتماعي وسياسي واقتصادي كذلك متخلف مع الكنيسة وصكوك الغفران ومع المسيحية. لذلك تحدث ماركس عن أفيون الشعوب. هي نتاج ورد فعل على واقع اقتصادي طبقي واستغلالي ما يزال يجتر تخلف القرون الوسطى معه. هكذا جاءت الماركسية واقعية في طرحها للبدائل المناسبة داخل المجتمعات الغربية. أما فيما يخص بلداننا، كان يلزمها الوقت للتجذر والتفاعل مع الواقع لتنتج شيئا مماثلا في التغيير داخل مجتمعاتنا.

تصور أن ماركس مثلا، رأى في الهند والجزائر ضرورة الاستعمار لقلب نمط الإنتاج، ولتشكيل طبقات برجوازية وبروليتارية، حتى يتسنى لمعادلة الصراع الطبقي أن تتجذر، وحتى يتسنى للفكر الماركسي والاشتراكي أن يجد الشرعية في التطبيق داخل هذه المجتمعات... وها هي نتائج الاستعمار قد ظهرت، وما تحققت مقولة ماركس في التغيير. الذي يُؤسف له أن ماركس العالِم والمفكر والفيلسوف، كان واقعيا قابلا لتغيير آرائه وأطروحاته بحسب معطيات الواقع المتجددة، لكن أتباع الماركسية قدسوا النظرية وأصبحت دينا ماديا مفروضا بالقوة على الواقع، ولو كان هذا الدين أعمى لا يرى ألوان الواقع ولا حجمه. لينين مثلا، كان واقعيا، كَيَّف النظرية مع الواقع، لهذا وجدنا الماركسية اللينينية. لكن الصراعات الداخلية والخارجية مستمرة، تضغط على الفكر، فيتوَحد ويتصلب ولا يغير من آلياته خوفا على هدم بنائه العام. هذا ما وقع.

كان مارسيل منتبها بجدية أكثر لما يقوله الأستاذ الجامعي. يعلم أن مستوى التحليل هنا يحتاج إلى اشتغال عقلي أعمق. علّق على ما سمع:

ـ لكن تجربة ستالين عيّبت الماركسية والفكر الماركسي، صحيح. نفس الانتقاد قمنا به في فرنسا. إنما القيم والمبادئ الماركسية عالمية وإنسانية، تتوافق مع ما أشرتَ إليه من محاربة الظلم والبحث عن العدل والمساواة ومحاربة الاستغلال. كما في الإسلام. المأزق والفارق بين الإسلام والماركسية في قبول أو رفض وجود عالم آخر غيبي، أي حياة أخرى.

يتدارك السيد عبد العزيز الأستاذ الجامعي فكرة ما، قبل أن تنفلت من ذهنه، ويتسمح في أخذ الكلمة من جديد:

ـ صحيح، هي مسألة تصبح حساسة ومعقدة إذا أردنا إثبات الحقيقة فيها. لكنني أرى الحلقة الأساسية هي فكرة وجود الله. هل هو موجود أو غير موجود؟ حينئذ، يسهل التعامل مع الفكر الغيبي بحقائقه وخصائصه.

يرتشف السيد عبد العزيز من كأس شايه ويلتمس بحركة ضم لكفّيْه عذرا يجعله هو المستمر في الحديث:

ـ الزواج ميثاق ترابط بين رجل وامرأة. والميثاق له أسس دينية تنظمه في الإسلام. إذا تناولنا سؤال بداية هذه المناقشة سيكون الرجل لا يؤمن بالله، والمرأة تؤمن بالله مثلا. الإشكال ليس إنسانيا محضا، بل هو ثقافي وقانوني واقتصادي وحضاري وتربوي وأخلاقي. بنيت المفارقات فيه منذ قرون وقرون. وتصور أن كل هذه العقد التاريخية فجرناها في بيئة بنية صغيرة، والتي هي مؤسسة الأسرة، فجرناها في تربية الأطفال، ليس بداعي الحرية في الاعتقاد، سَنَجْني على الأطفال. العقيدة حب كذلك، والحب سيمزق يوما العلاقات مع الوالدين. من هذا الجانب النفسي يخاف الإسلام على علاقة الأولاد بالوالدين، يريدها منسجمة لأنها مرتبطة باستقرار العقيدة جيلا بعد جيل. هذا ما يجب أن

يكون، لكن في الواقع، هناك تقارير لهذه السنة التي نعيش سيرورتها الآن، تتحدث في المغرب عن عمليات تنصير واعتناق للمسيحية وصلت إلى أربعة آلاف شخص سنويا. ومغاربة جمعوا كل المتناقضات بين سكر وصلاة، ورشوة وفضيلة، مغاربة بَيَّضوا القيم كما بيضوا أموال المخدرات. زواج أبيض، عرس أبيض، إسلام أبيض. سخافة مضحكة لنا وعندنا نحن كمغاربة ! المشكل ألا وجود لقناعات، بل مصالح مادية داخل هذه المتناقضات، براغماتية بشعة، وعبث في عبث.

يتدخّل يوسف ليضيف ما اطّلع عليه وقرأه:

ـ قرأت خبرا لطيفا هذا الصباح. زواج إمام مسجد بإيطاليا من كاثوليكية، واتفاق على إحياء العرس والحفل بالمغرب. وفي تصريح للطرفين التزمَا باحترام عقيدة كل واحد للآخر ولعبادته، واتفاق على حياة زوجية مستقرة بشروط متبادلة فيها إشارة لتعايش الأديان والتسامح بينها. لكن سؤالي المطروح والمُلِحّ في هذه القصة هو كيف سنزاوج بين الأديان السماوية؟

يستوي الأستاذ عبد العزيز الصافي في جلسته ثم يعيد رفعه لرأسه كأنه يستعين بالسماء في هبوط فكرة ما. تأمّلٌ تعَوّد عليه في الدرس الجامعي الذي يلقيه على طلبته:

ـ حوار الأديان هو حوار الحضارات في اللقاءات والمؤتمرات، هو نشر لقيم السلم والتعايش والتسامح والتعارف والإيمان بالاختلاف. يقول تعالى في سورة الحجرات: (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)•. صدق الله العظيم.

وفي ربط للسابق باللاحق، يسأل يوسف صديقه الأستاذ الجامعي:

ـ ما الذي تقترحه على مارسيل يا أستاذ؟

• - الآية 13.

ـ لاشيء. حريته أولا. اختياره أولا. لايمكنني فرض شيء عليه. حلول الواقع كثيرة، لكنها ليست مقنعة. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة القصص: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)• صدق الله العظيم.

قد أقترح عليك يا مارسيل مصاحبة الله والتعرف عليه، وسعة خاطر وبال في الرحلة إلى عالمه. وهي رحلة شاقة وطويلة إذا لم يتصف فيها الواحد منا بالرغبة والحب وبالصبر كذلك. قد لا يكفيك العمر فيها، مثلما لن تكفيك لحظة قصيرة مع مَن تحب، مع من هو عزيز عليك طبعا.

يبدي مارسيل قبول الفكرة واستحسانها:

ـ مرحبا به كصديق، أين هو؟

تبتسم الجماعة لتعليق مارسيل في انتظار من سيتكلم ويجيب عن هذا الإله كصديق وأين يوجد.

ـ الطريق سهل وصعب في آن واحد كما قلت، بحسب الاستعداد يا مارسيل، وبحسب الرغبة النفسية فيه. سأحيلك على قراءات شعرية وفلسفية بالفرنسية لمتصوفة في رحاب الله تعالى ورحاب الإيمان والعالم العلوي. ربما تحبها، لكن ما هو أكيد هو أنها ستغذي روحك ونفسك.

مارسيل، وكأن العطش هو الذي يحرك سؤاله كظمآن تائه في فيافي أو صحراء قاحلة:

ـ أتمنى ذلك.

عبدالعزيز:

• ـ الآية 56.

ـ طيب، ستجدها عند يوسف بعد يومين، وأشكركما على هذا اللقاء. في الحقيقة سافرت في وجداني وإيماني معكما. دعونا الآن نفكر في تناول وجبة شواء شهية خارج المدينة. ما رأيكما؟

ـ بالرحب والسعة. علق يوسف

مارسيل:

ـ يبدو أن سفري أصبح روحيا الآن وثقافيا إلى جانب هذا الكرم المتجدد داخله.

عبد العزيز معلقا ومبتسما:

ـ ما أجملها رحلة يا مارسيل، ستشكرني على هذا العالم الذي ستكتشفه وتسافر فيه. ستدخل إلى دائرة إنسانية فريدة في كل بقاع العالم. كم من غربي أصبح من رواد هذا العالم. أترك لك فضول الاكتشاف أولا، وبعد ذلك تنخرط في هذه الدائرة الجديدة. طيب سأكون أنا من سيستضيفكم لأكلة كباب وشواء بمدينة بوزنيقة. مرحبا بكما.

العشق الإلـهي

في رحاب الرحمن

(كل العالم بداخلي. أنا بذرة الأكوان، المنتشرة في كل مكان. كل العالم بداخلي، جمال العالم، خلقتي. كل الخطايا، أنا، بداخلي. أداوي بلَمسة حنان، بِهَرمونيا، بلمسة الأيادي.

كل العالم بداخلي. حب كبير، انصهار الأحجار الصماء، تربة، بذرة، زهرة، انفتاح حياة مع إشراقة السماء، ومع نور الضياء.

كلٌّ حركة في العالم، بداخلي. كلٌّ يسبح: الله نور السماوات والقلب. كلٌّ يحمد. أنا العاشق للحبيب، أنا محب.

كلّ العالم بداخلي طهارة المحيطات، تغمرني، رسالة الأشعة، ترفعني، على بساط بخار الهواء، أنا في السماء، أنا في السماء، بريء من كل صماء، مليء بالضياء.

أنا الهوى، أنا الحب، أنا الإله الذي يسكن الفضاء، وحي في الفؤاد، قلم مسطور بين أنامل السعداء، يخطها محب، عاشق الحبيب، صفاء، صفاء، صفاء).

لما قرأ مارسيل هذه الخواطر من كتاب العشق الإلهي، احتاج إلى استنشاق هواء، كأن دواخله محتاجة إلى تنفس جديد. أبعد منفضة السجائر، أغمض عينيه، باشر أشعة الشمس، كأنه في حاجة إلى حمّامها لتغذية بشرته ومسامها بها.

ذهب مسافرا في دواخله يزيح حجبا وجدرانا وأسيجة. حضرته طفولته، كما حضرته هيلين ببسمتها في أول لقاء بينهما. لا زال القلب يحتفظ بأجمل ذكريات العشق والتعلق.

رنات ناقوس الكنيسة القروية وشموخ جبال الألب الأمامية. الأمواج المتضاربة أسفل السفينة المبحرة، في رحلته إلى المغرب.

عاود القراءة مرات ومرات. شَعُر بالحاجة لذلك كحاجته لسجائر متتالية أو قنينات جعة أو كؤوس نبيذ. هذه المرة سكَر بالكلمات وسحرها، إدمان روحي على هذه اللمسات الحرفية، رغم أنها مترجمة من لغتها العربية. ترى كيف سيكون جمالها بلغتها الأصلية؟

هكذا سافر لبضع ساعات، احتاج إلى طهارة طبيعية. قرر السباحة في شاطئ المحمدية، ملامسة الأمواج وملوحة البحر والمد والجزر، والالتحاف بالأشعة الشمسية. أهو طقس أو قداس لولادة جديدة؟ ربما. ترك للطبيعة والفطرة عملية اختيار الفعل المناسب لتلك الصبيحة. لمس مع كل ذلك حضور الرفيق الجديد. فعلا، كما قال السيد عبد العزيز الصافي. الصاحب الجديد، وهذا صديق جديد. إنها رفقة التعرف على الإله، الممثل للخلق والكينونة والحياة.

فك هيلين من سحر فينوس

(أمامي أسبوع واحد متبق من أيام هذه العطلة التي اخترت لها بلد المغرب. دعوة عاجلة واستضافة غريبة، لك يا هيلين. التحقي بي، أنا في المغرب. هناك عالم جديد أدعوك لاكتشافه. خذي أول طائرة تقلك إلى مدينة الدار البيضاء، سأنتظرك هناك. أنتظر الجواب. هذا رقم الفاكس، وهذا رقم هاتفي الخاص بالمغرب. شكرا. لأجل حب هيلين نجمة طروادة).

بعث مارسيل بالفاكس إلى هيلين في قريتها شمال غرب فرنسا. لم يكن مستعدا للرجوع إلى العمل بمدينة ليون، لذلك طلب تمديد عطلته من إدارة العمل.

لقد فتح باب السماء في وجدانه. يقضي ساعات أمام أمواج البحر والشاطئ، متأملا الأفق وحركة الطبيعة، مرتويا بصوت أمواج البحر، مالئا بها أركان مسامعه وفؤاده. ترى هل ستقبل هيلين الدعوة؟ هو يعلم أنه لو بعثها من ليون، كان الرفض قطعيا. فعملية تراكم النفسي والثقافي داخل النسيج المجتمعي الفرنسي هو الغالب في أسباب توتر هيلين وأرَقها وانزوائها وانطوائها الداخلي. لم تعد تُبْدي لا حبا ولا كرها. تغيرت طريقة أكلها. كأنه دواء غريب مفروض من طبيب تجهل اختصاصه، ولا تعرف لِمَ يعالجها. خفتت مشاعرها، فغابت رغبتها تدريجيا في كل معاشرة جنسية. رغم ذلك، كانت كلما امتلأ غيضها بالمجهول، انفجرت وانهمرت بكاء وشهيقا، فعانقت مارسيل لا لرغبة،

ولكن للهروب من دواخلها المتهشمة. قُبْلتها على خده، ترسمها لدقائق متعددة، كأنها شفاعتها عنده لكي يسامحها على الوضع الذي أصبحا يعيشان فيه.

لم تكن فاقدة الإحساس مطلقا. حينما غادرته، وَهَبَته ابتسامة خالدة في آخر يوم معه. تناولت كأسا من الجّين، جلست زهاء ساعة أمامه، جففت دموعها، تركته بلمسة كفها على خده الأيمن وعلى عنقه، ضاغطة بأناملها على الجهة اليسرى من صدره. أدبرت بخطوها حتى سيارة الرفقة العائلية التي أوصلتها إلى قريتها. غادرته فعلا، لكن بقي حبها وبسمتها وعطر جسدها ونَفَسها. كل هذا الرأسمال كان محيطا بمارسيل خلال المدة التي تركته فيها بمدينة ليون.

لم يكن مارسيل ليكتشف هذه الحقائق التي تلبسه وتغمره بوجودها. لكن هذا التحول المفاجئ الذي طرأ على شخصيته، كأنه ريح بحري أيقظ ذهنه وأخرجه من ثمالة طويلة. هذه الرغبة في الحياة، وهذه القراءات الصوفية التي سحرته ببلاغتها وقيمها في الحب والإيمان بقدر ما فتحت له أبواب السماء، بقدر ما فضحت أنانيةً كانت تمتلكه وتجعله جاهلا لما طرأ لعلاقته مع هيلين، وبقدر كبير من الهروب إلى الأمام. من منا لا يسكنه جهل داخلي بأسرار دفينة وأمراض أو عقد نفسية وأخطاء جبل عليها نفسه؟ ربما جلّنا، أكيد.

هكذا كبُر عنده وداخله هذا الشعور بالذنب، بل الرغبة الملحة في إنقاذ حبه لهيلين والذي بقي في مُبَرد مخزون إلى أجل غير مسمى. لقد اكتشف القدرة على إنقاذه. تفكر تشبيهه لاسم زوجته التي فارقته باسم بطلة طروادة. يتفكر دائما كم كانت اللعبة شيقة في إقحامها داخل القصة، وجعلها تتصور سيناريوهات لمعركة طروادة ومصير أبطالها، وتغيير أحداثها، وأنسنة آلهتها، وموقعة أساطيرها...

لكن ما كانت تطرب له هو جعلها أجمل نساء الأرض، ساحرة الآلهة، مسببة الغيرة لفينوس إلهة الجمال، منتقمة من سحرها بإعادة نسج القصة بعكس إرادة الآلهة، بعكس مفعول السحر. كان مارسيل يقع في شباك خيال القرن

العشرين المُسْقَط على أسطورة هيلين. كيف ستواجه فينوس يا مارسيل؟ هل ستضعف أمامها؟ هل سيغلبك سحرها؟ أنت منيلاوس، كيف تنقذني من باريس وترجعني وتداويني من سحر فينوس؟ قم بفك ألغاز الأسطورة يا مارسيل.

فعلا، أصبحت القضية ألغاز أسطورة. خطوة مباغتة لمراسلة هيلين. من أين؟ من المغرب. دعوة للسفر وغرابة في المفاجأة لعلها أشعة شمس يبعثها زيوس كبير الآلهة غير المرئية في نفوسنا وعلاقاتنا. لعلها آخر صمودٍ لشخص موشك على الغرق النهائي، بالصعود إلى سطح الماء لآخر مرة يستطيعها كغريق قبل أن يستسلم لابتلاع اليم له والموت فيه. رغم أنه منبع الحياة الأولى سيصبح منتهاها ومُنهيُّها. يا للمفارقة العجيبة. ربما ستكون آخر طلعة. ربما ستجعل أحد الأفراد من طاقم السفينة يرمق رأس شخص يبدو فوق سطح الماء، فيلجأ لإنذار الآخرين لأجل إنقاذه في آخر لحظة.

لمس في تفكيره هذا، وتحليله الباطني لجوؤه الثقافي المستنجد بالفكر الأسطوري اليوناني. كلما انسدّت الآفاق، ضاق حيز الفهم بالعقل، كانت الأشطورة اليونانية والإغريقية ملجأ الغربي لكي ينقذ نفسه وروحه ووجدانه. وهذا ما فعله هنا.

جدد مارسيل لعبته مع كل طارئ جديد على ذهنه وحياته. اقتنى فيلم معركة طروادة، وأشبع بصره برؤيته لعله يجد وسيلة لإنقاذ واسترجاع هيلين المأخوذة بسحر العصر الحديث المؤرق، والمأسورة في قريتها شمال غرب فرنسا. دونما حاجة لجيوش، ولا دسائس، فقط تأمل وتركيز عقلي في الأمر. لقد تغير مارسيل فعلا. أصبح مملوكا ذهنيا بالتأمل والتفكير بمواضيع جديدة. كان مختبر العقل هو المساعد على تغيير مسار القدر في المحيط بحياته الخاصة التي يعيشها. حقله الذي يشتغل فيه ويدير انطلاقا منه مخططاته. هو المغرب، هذا البلد البسيط في تركيبه والغني بقيمه وثقافته، المليء بالنعم، الفقير في الاستفادة منها.

رحلة عزاء

كادت بسمته أن تقبض بخيوط القدر، على قدر جديد. لولا أن مدبر أقدار أخرى تَحكَّم في هذا الجديد. شعور بالضعف، شعور بالعجز. لكنه قبول هادىء لما وقع، ولما أخبروه به، وما سمعه. بسمة عميقة تضغط على شفتيه بهدوء، تسري مع أنفاسه، تعانق حركة نبضات قلبه، تعاود الصعود مع عمليات التنفس في كل استنشاق واستنثار هواء:

(عظيم هذا القدر. في اللحظة التي اكتشفتُ فيها عالمي الجديد، في اللحظة التي الْتفتّ فيها لما تبقى لي من فرنسا، لما تبقى من وعد خالص، وعملة عاطفية صالحة في فرنسا، شاء القدر، هذا القدر، أن يأخذ مني الجوهرة التي كانت ساكنة في أعماق مزهريتي القلبية. حينما أردت استرجاعها من الأعماق، انفلتت، لم يعد لها وجود. لم يعد لها أثر. تحولت المزهرية إلى أعماق المحيطات، غارت الجوهرة ذاهبة إلى الأبد، إلا من ذكرى وقلب شغوف بحبها وبشوق صفائها ولمعانها. لا اعتراض على القدر، هو الحب الجديد، ينصهر فيه الكل الحاضر والغائب. ما دام القدر قد أخذ ما أخذ فهو يحب ما أخذ، سعيد بحصيلته.

ـ نامي بسلام يا هيلين. هكذا علق على الفاكس الذي وصله بعد ثلاثة أيام من انتظاره ردّ هيلين. باعثةُ الفاكس كانت هي ماري، أخت هيلين.

(- بكامل الأسى، أخبرك بنبأ وفاة هيلين. لقد كانت شاكرةً لك دعوتَكَ قبل رحيلها. مذكرة لنا بحبها لك. تاركة لك وصية محفوظة في انتظار تسلمك لها. مراسيم الجنازة بعد يومين من تاريخ هذا الفاكس. عزاؤنا واحد).

تغيرت مجريات ما يجري. العطلة الممدة عند مارسيل، كأنها كانت تهييئا لحضور مراسيم جنازة هيلين. العالم الروحي الجديد، كأنه تهييئ لتقبل الموت كواقعة جديدة صادمة لكنها واقعية. جزء منه انتُزِع بعد خبر الوفاة. نصف تفكير، نصف كلام، نصف حركة، هدوء يمتلك كل الخلايا والأعضاء والحركات.

...

مع سلسلة ذهبية بماسة زرقاء صغيرة، وجد رسالة مقتضبة:

{عزيزي مارسيل، أيا ما كان هذا العالم الجديد الذي تدعوني إليه، أكيد أنه جميل. مادام فيه حبنا الذي حافظت عليه. انْعَمْ به وابعث لي برسالة تصفه لي، ربما وأنا في العالم الآخر، عالم ما بعد الموت. ربما لم أكن أنتظر سوى هذه الالتفاتة حتى أشعر بقيمة ما مضى، وأشكرك عليه، وأستسمحك فيه. قبلاتي. وداعًا}.

كم هو جميل هذا الاستعداد للرحيل، للموت. كتبت الرسالة، وكما تحكي أختها ماري: أذرفت دمعتين على الطاولة، طوتها. تناولت نصف كوب من الحليب لأجل دوائها، تمددت على الفراش طالبة مني أن أجعل الرسالة مع سلسلتها في صندوق خشبي صغير وعتيق. طلبت حجب ضوء النوافذ وأشعة الشمس بالستائر، والرغبة في الاسترخاء والنوم. هكذا تحكي ماري عن لحظاتِ ما قبل موت هيلين. أكبر هبة تجعلها لنا الحياة هي هذا الاستعداد والقَبول الهادئ للرحيل، للموت، للعزاء الداخلي قبل عزاء الأحياء فينا.

...

قبل عودته إلى سويسرا، التقى يوسف جاره مارسيل بلِيون، مواسيا له من جديد. علق مارسيل معبرا عن شعوره بقسوة ما:

ـ لما أحببتُ هذا القدر، فاجأني بالموت.

أجابه يوسف، بعد روية في الأمر:

ـ تعلم يا مارسيل، إذا أحببت القدر فأنت مومن إذا. والمومن مصاب.

ـ كيف يا يوسف؟ أهذا جزاء أم انتقام أم ماذا؟

ـ لا، بالعكس، نحن نتوهم المطلق، الحقيقة المطلقة، الصحة المطلقة، القوة المطلقة، الحياة الخالدة... يعيش الواحد منا في غرور، وهذا هو السبب في مشاكلنا: الغرور. ينسى الواحد منا أن الحياة نسبية، ذاهبة. القدر يذكرنا كل مرة أننا أمام نسبية تامة. كيف نتبناها كحقيقة فيزيائية وعلمية ونرفضها كواقع حياتي ونفسي؟ أين سنكون أنت وأنا بعد مائة وخمسين سنة، في التراب طبعا. هل تقبل أن نختصر المسافة لهذا التراب، مادام هذا التراب آت لا محالة؟ اختبر نفسيتك وغرورها بالحياة. لا نحب الصدمات طبعا. هذا هو القدر، يهيئنا لما كتب لنا في الحياة والموت. أتمنى أن يكون كلامي واضحا يا مارسيل.

ـ طبعا واضح. أدرك ما تقول. لقد تغيرت نظرتي للعالم والأشياء يا يوسف. أشعر بوجود القدر وحكمه في خفايا أمورنا. قد نسميه إلها، أو ربا، أو أي تسمية أخرى، فهو المتحكم في هذه الخفايا. موجود دون أن نراه فعلا.

ـ الأستاذ الجامعي السيد عبدالعزيز الصافي يبلغك عزاءه وأسفه على المصاب الجلل.

ـ شكرا له. سأبقى ممتنا له بذلك الحوار وتلك الكتب طول حياتي. هي رفيقي الجديد الآن. تصور في رحلة الطائرة، كانت قراءتها في بعض صفحاتها مختصرة الساعات إلى ثوان بين المغرب وفرنسا. لما وصلت إلى المطار، هنا بفرنسا، نظرت إلى باب الخروج، مرددا عبث الأمور كيف تقع: كنت أنا من سينتظر الآتي من هذه الباب، والآن أصبحت أنا الآتي إليها. كل شيء نسبي كما قلت يا يوسف.

(هل نرفض الحياة لأن فيها المرض؟ هل نرفض المرض لأن فيه الألم؟ هل نرفض الألم لأن فيه الموت؟ هل نرفض الموت لأنها تأخذ منا هذه الحياة؟ هل يمكن أخذ ما نحب وترك ما لا نحب؟ لا. الحياة أخذ وعطاء. لا عصيان مع القدر. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. وما تشاؤون إلا أن يشاء الله). عبارات جديدة أصبح مارسيل يتعود عليها وعلى سماعها في ناديه الجديد، زاويته الصوفية الجديدة التي أصبح يرتادها كل جمعة، مساءً، بين الثامنة والعاشرة ليلا. جلسات للذكر والحوار، بدأها كمستمع ومتقن لقراءات ترافقه طيلة الأسبوع، ثم تحول إلى مشارك فيها. تقتضي الجلسات الروحية الصوفية السماع ثم السماع ثم القَبول وإرجاء غير المقبول إلى حين، ثم المشاركة في الحوار في المقبول، وتزكية هذا المقبول، لتساهم بقدراتك في تأكيده والتعبير عنه، ولا تنسَى أن ما لم يتم قَبوله، مرجأٌ إلى حين. فكم من غير مقبول، ولا نقل إنه مرفوض، هو غير مقبول إلى حين. كم من غير مقبول يعالجَ داخل المقبول فيصبح مقبولا. هكذا هي طُرُق العلاج الصوفية والرياضة الروحية والعلاج لما هو نفسي داخلها، لما هو عقلي، لما هو سلوكي، لما هو وجداني وروحي.

بعد بضعة أشهر أصبح بإمكان مارسيل أن يمارس نفس القاعدة مع جاره علي. أصبح علي يتزود بجديد مارسيل الروحاني عن طريق جلساتهما المتكررة في كل مناسبة. أصبح علي هو السائل، ومارسيل هو المجيب. تحول مارسيل إلى معلم في الروحانيات وأمور الإيمان بالمحبوب، الخالق، الله. أحبه كحبه لهيلين، وللحياة، ولكل ما هو جميل في هذه الحياة، كما أحبه لأنه صاحب القدر والمتحكم فيه،

والمخبئ للأسرار داخله. والجميل في السلوك المرافق أن مارسيل أصبح ينتهز الفرصة كلما سنحت الظروف لكي ينظف وعاء قمامة جاره علي، ويستحضر في ذلك حديث رسول الإسلام الذي حفظه ولقنه إياه جاره سي علي: من تواضع لله رفعه.

أصبح علي بالمقابل معلم مارسيل لبعض الألفاظ العربية، المفاتيح في رحلته الروحانية. تجاوبٌ كبير بين الجارين، بدأ ببساطة، بحسن جوار، بطيب معاملة، بتواضع أحد الطرفين، تطور إلى أخوة أخلاقية وليست دينية بعد. أصبح علي يؤدي بعض الصلوات أمام جاره مارسيل، مرتاحا لقلبه الجديد في الإيمان، بل إن شهر رمضان كان مناسبة لتناول فطور الصائمين، علي وفاطمة. جرب فيه مارسيل، كطفل صغير، الصوم ليومين متفرقين. مع الجهد في إنجاح تجربة الصوم . وكان ضيف شرف على مائدة إفطار علي وفاطمة.

قبل النوم، فتحت فاطمة حوارا أصاب عليا بأرق شديد، ليس لِهَمّ أو مرض، بل لزيادة تفكير في الإشكال المطروح:

ـ تعلم، لو أن مارسيل تزوج الصيف الماضي من مغربية، ما كان ليصبح قلبه مليئا بالإيمان هكذا.

ـ من أين تأتين بهذه الأفكار. مرة تريدينه أن يتزوج، وتتوقين لكي تكوني مهندسة هذا الزواج، والآن تقولين لي رأيا وحكما مناقضا. لكن، اشرحي لي: كيف ذلك؟

ـ جل المغربيات ماديات. ما سيزيده حرصا على حياته المادية ومقاسمتها مع الزوجة الجديدة. ألا تتذكر تلك الفتاة من مدينة الدار البيضاء التي التقيناها في ميناء الخزيرات؟ رفقة ذلك الإسباني. عالَم جنس وخمر وليس زواجا نزيها.

...

كان تفكير علي في جاره مارسيل، صديقه وأخيه الجديد، تفكيرا في مصلحته وفي حمايته. أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك. هكذا تعلم من الحديث النبوي الشريف. طوال الليل يفكر في وضع جاره، وما الذي يمكن أن يسعده به ويفرحه؟ طبعا، لا يمتلك الحلول الفلسفية ولا الثقافية. ولكنها الحلول المعاملاتية والتواصلية والاجتماعية والإنسانية عموما.

ـ ما أعلمه، أن رحاب الفضيلة هي سبيل النجاة في الدنيا والآخرة. هكذا تكلم مع نفسه، رغم أنه قليلا ما يقع في مثل هذا الشرود عن الصمت الرزين. فالصمت حكمة. هكذا تعلّم علي.

ـ مارسيل، حبي لك هو حب في الله. وتعلم هذا. أريد لك الخير كما أريده لنفسي في الدنيا والآخرة. أدعوك للدخول في الاسلام، وأن تشهد أن لآ إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. أتركك في رعاية الله. وأتمنى أن أسمع غدا خبرا مهما وجديدا.

هكذا كلّمه في تلك الليلة، كأنه لم يرد النوم حتى يقوم بواجبه تجاه جاره وتجاه من يحب ويرجو إيمانه، لِما رأى فيه من ميول للإسلام. وطبعا ما على الرسول إلا البلاغ المبين. (هكذا علّمنا ديننا الإسلامي). يقول تعالى: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[2]. صدق الله العظيم .

[2] سورة القصص، الآية 56.

الكاتب حسن إمامي

من مؤلفاته

في الرواية

الساعاتي – زهرة النرجس – ديلار شرفة الريح – أقفاص – شجرات وخرائط – بحيرة العشق اللازوردي – قرية ابن السيد – سيرة مدينة ونسبج حياة – أم الغيث – أوراق التوت المتساقطة – فيلا ماري روز – دون فيليبي دي أفريكا – صرخة المصابيح

في القصة

مدائن ليلات – رقص فوق السحاب

* * *